ثنايا الخور

عنـوان الكتـاب: ثنايـــــــا الخـــــــور
الموضـــــوع: روايـــــــــــــــــة
التـأليـــــف: .....
مراجعـة لغويـة: عمـــرو ســـالم ســـواح
الإخـراج الفنـيّ: عمـــرو ســـالم ســـواح
تصـميم الغـلاف: .....
رقـم الإيـداع: 2019/ 00000
التـرقيم الـدولي: 978-977-6636-00-0
الناشـــــر: دار تويتـــة للنشـــر والتوزيـــع
www.facebook.com/Tweetforpublish
tweetpublishing2017@gmail.com
ش محمد أبوالعطا- محطة العريش-فيصل- الجيزة7
رئيس مجلس الإدارة: م/ أحمد عبد العزيز
المدير العام: أ/ رشا العمري
01017799799
01225762066

#غرّد_للعالم

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

رواية

ثنايا الغور

مدينة مرسى مطروح

خيوط رفيعة من أشعة الشمس تسربت من وراء السحب فتحولت معها زرقة مياه البحر المتوسط للون فضي يريح الروح والبصر... السماء زرقاء صافية إلا من كتل سحابية صغيرة لا تحجب الأشعة، وهواء العصاري اللطيف أخذ يداعب خيوط سنانير الهواة من الصيادين الجالسين بصبر في انتظار ما ستجود به المياه... المارة يذهبون ويجيئون على طول الكورنيش، والعربات بدورها تشارك في عجلة الحركة التي لا تتوقف على أرض مطروح.

جلس شعيب بمقهى في مواجهة الكورنيش مباشرة يبعد بضعة مترات عن مسجد سيدي العوام الذي تكشف مئذنتاه مياه البحر المتوسط إلى ما يمتد به البصر وتطوله الرؤية، الهواء منعش مائل إلى برودة تشتهيها النفوس والأجساد فطابت نفسه لما يعتري الجو من برودة منعشة... إلى جواره سكنت جامدة حقيبة ملابسه السوداء على أحد الكراسي الخشبية التابعة للطاولة التي يقتعدها في المقهى... تحسس جيوب جاكيته الجلدي ليطمئن على وجود المصحف بداخله وتحسس موضع حافظة النقود ليتأكد أنها بأمان، وسحب من على الطاولة كيسًا من الساندوتشات كان قد ابتاعه قبل وصوله للمقهى من أحد المطاعم المنتشرة في قلب المدينة ... أخرج "ساندوتش" من داخل الكيس وأخذ يمضغه على مهل ونغمات صوت فيروز تصدح من مذياع موضوع في أحد أركان المقهى بصوت ناعم (شو بدي دور لشو عم دور على غيره ... في ناس اكتير لكن بيصير ما في غيره)

فأطربه صوتها العزب واكتمل بنعومة صوتها السيمفونية المخاطبة للروح، سيمفونية البحر والسماء وصوت فيروز.

ما لبث أن فرغ شعيب من طعامه حتى جاءه صبي القهوة فقطع انسجامه مع منظر الطبيعة وصوت فيروز وسأله في تأدب:

- تحب تشرب أيه يا باشا؟

- شاي.. شاي سادة!

- عيوني يا باشا.

- تسلم.

تاه شعيب ببصره من جديد في روعة المشهد من أمامه، زرقة البحر وصفاء السماء واجتماعهما في الأفق البعيد، نسيم البحر الذي تحمله الرياح إلى الأنوف، والأمواج الصاخبة وسكونها المفاجئ بمجرد تلاحمها بحبات الرمال الناعمة المستقرة على الشاطئ، السفن والقوارب التي تطفو وتبحر في وسط المياه رغم ثقل كتلتها.. كان المشهد يوحي بالطمأنينة، وفي الوقت الذي تطمئن فيه النفس وتأنس الروح إلى هدوء الأوضاع من حولها يحلو التمني، فحلق شعيب بأجنحة من الأمل في سماء الأماني وتذكر الطريق الذي بدأت أولى خطواته منذ ساعات غير بعيدة عندما اعتزم الرحيل لبدء حياة جديدة، وتركزت أمانيه على أمر بعينه وهو الوصول إلى بر الأمان في تلك الرحلة المحفوفة بالمخاطر من كل اتجاه مهما كلفه ذلك.

كانت الخيارات قليلة من أمام شعيب وشبه منعدمة فما كان منه إلا أن اتخذ قراره الأخير للسفر، وهو قرار خطير في ظاهره يكتنف باطنه الغموض، لكنه في النهاية قرر بأن يغامر مهما كانت العواقب... عاد من تيه

أمانيه على وقع ضربات الملعقة وهي تبدد واقع حبات السكر في كوب الشاي معلنة عن قدوم صبي القهوة الذي وضع الشاي على الطاولة وخاطبه قائلًا:

-تؤمرني بحاجة تاني يا باشا؟

- كتر خيرك يا حبيبي، قول لي: انت اسمك أيه؟؟

- عماد أو عمدة، اللي تحبه يا باشا..

- ماشي يا عمدة، وأنا اسمي شعيب وسيبك من باشا دي خالص

- ماشي يا عم شعيب

أمسك شعيب بالكوب واستشعر سخونته بشفتيه في حين وقف عماد منتظرًا في موضعه إتمام الحديث فسأله شعيب:

- هو الجامع ده اسمه أيه؟

- اسمه سيدي العوام ومقامه في المسجد من جوا، عارف يا باشا سيدي العوام ده ولي وله بركات جامدة أوي، بس أنت شكلك مش من مطروح يا باشا علشان ما فيش حد ما يعرفش سيدي العوام في الجهة دي.

أكمل عمدة كلماته وهو ينظر إلى حقيبة الملابس الخاصة بشعيب فأجابه شعيب مبتسمًا:

- أنا مش من هنا فعلًا، أنا من القاهرة.

- أنا قُلت كدا والله يا باشا اكمن الشنطة شنطة سفر، فقُلت انك جاي تقعد لك يومين عندنا.

فابتسم شعيب ورد قائلًا:

- ما تسيبك يا عمدة من باشا دي بقى وقل لي شعيب وبس.

- حاضر، سؤال بس معلش يا عم شعيب، أنت عندك شقة هنا ولا هتنزل في فندق؟! لو عاوز تنزل في فندق أنا أعرف فندق نضيف وأسعاره كويسة.

- والله يا عمدة أنا جاي لجماعة من قرايبي هنا مش جاي نازل في فندق، كتر خيرك.

- على أيه بس احنا عاوزين نساعد مش أكتر، أنا بحب أخدم الناس والله يا باشا.

ارتسمت ابتسامة على وجه شعيب كادت أن تتحول إلى ضحك وقال مغالبًا الضحك:

-باشا تاني يا عمدة؟

- لا مؤاخذة يا عم شعيب بس لساني أخد على الكلمة، أصل الزبون عندنا هنا طياري مش زبون دايم اكمن إحنا على الكورنيش مش في قلب البلد، هما كام واحد اللي دايما هنا وحفظت أساميهم من بدري فتلاقي الكلمة بقت لازمة في لساني على طول لأي زبون.

- يا عم ماشي أديك حفظت اسمي.

- ماشي يا عم شعيب، تؤمرني بأي حاجة تاني؟

- كتر خيرك يا عمدة تسلم.

- تسلم يا عم شعيب، عن إذنك.

- اتفضل يا حبيبي.

علامات الغروب انتشرت في السماء فسحبت الشمس آخر شعاع لها واختفت في الأفق البعيد لتشرق في بقعة أخرى من الأرض وتستكمل رحلتها، السماء يملؤها شفق بحمرة دامية، ولفحات الشتاء المبدئية أخذت تداعب الأجساد بلطف في الحين الذي علا فيه صوت أذان المغرب من مئذنتي مسجد سيدي العوام الواقفة كمنارات مطلة على البحر المتوسط تنير النفوس بكرامات ما يكمن أسفلها.

تحرك شعيب من مجلسه بالمقهى بعد أن دفع ثمن الشاي وترك لعماد صبي المقهى إكرامية للطفه وتودده معه، اتخذ طريقه إلى المسجد فقطع المسافة حاملًا حقيبته لا يستشعر لها ثقلًا ونفسه مطمئنة وأفكاره هادئة غير مرهقة لعقله، وصل شعيب إلى المسجد فهاله الهيكل المنيف له بمئذنتيه العاليتين وقبته الضخمة التي تنتصف المئذنتين وباحته الواسعة فتعجب من ضخامة الرقعة التي تحتلها رحاب المسجد وتذكر مساجد القاهرة بصحونها الضخمة وأروقتها الطويلة ومعماريتها التي تزداد ضخامة عن ذلك المسجد، لكنه علل ذلك بأن البحار تضفي جمالًا ساحرًا على كل ما يقع أمام شواطئها، أو أن دور العبادة تزداد ضخامة في أعين المؤمنين... انفض شعيب من أفكاره ودخل من البوابة إلى الساحة فوقعت عيناه على المدخل واتسعت حدقتها لتتسلل إلى داخل الرواق فباغته صوت أجش لا يخلو من تأثير نافذ عن يمينه يتلو: "فلا صدق ولا صلى"؛ فالتفت شعيب إلى الجهة التي تأتي منها التلاوة فوجد رجلًا عجوزًا ملتحفًا عباءة بنية اللون يلاصق ظهره جزءا من الجدار المحيط بالمسجد وملامح وجهه غير ظاهرة، فسأله شعيب عن أحواض الوضوء فأشار الرجل بيده في اتجاه ممر ضيق

دون أن يرفع وجهه، فانطلق في اتجاه الإشارة ووقف قبل أن يلج الممر فأخرج حافظة نقوده فسحب منها خمسة جنيهات وعاد إلى الرجل ومد بها إليه يده فصده الرجل دون أن يتكلم فاستدار شعيب عائدًا إلى طريقه مندهشا من تصرفات العجوز العجيبة... وفي ظلام الممر سمع صوت الرجل يتلو في خلاء الساحة من جديد: "و لكن كذب وتولى"؛ فتوقف للحظة في ظلمة الممر متأثرًا بالصوت الرخيم الذي يتلو به الرجل واتخذ سبيله من بعد توقفه إلى أحواض الوضوء في تعجب.

وضع حقيبته على رف رخامي بالداخل في مأمن من الماء وتوضأ فأتم وضوءه على أفضل حال وسحب حقيبته من على الرف وأخذ يتمتم باستغفارات وأدعية حتى وصل إلى مدخل المسجد.

* * *

دخل شعيب إلى المسجد فَعَلا صوت الإمام في مكبرات الصوت بإقامة الصلاة واصطف المصلون وشرع الإمام في الصلاة فحثّ شعيب خطاه إلى أن التحق بالصف الثاني وسط المصلين واضعًا حقيبته بين قدميه، في خشوع تام وبصوت نافذ إلى النفوس تلا الإمام مواضعَ من القرآن حلقت بالمصلين في السماء واغرورقت أعين بعضهم من آثار الخشوع والاندماج مع التلاوة وسكنت أرواحهم بصنيع كلام الله إلى أن قضيت الصلاة بتسليمات الإمام بعد التشهد.

فرغ شعيب من الصلاة بنفس مطمئنة فوجد المصلين يتخذون طريقهم إلى الضريح المنزوي في إحدى جنبات المسجد للتبرك ببركاته،

ترددت عينا شعيب تستكشف المسجد والعناصر المعمارية لصحنه الداخلي، المنبر الخشبي المصنوع من الأرابيسك والمحراب المضروب في اتجاه القبلة المصمم بعناية وأعمدته التي ترتكز عليها الكتلة الكلية للمسجد، الزخارف الإسلامية المرسومة في تجويف القبة والثريا التي تتدلى منها قناديل زيتية، فأعجبه الإبداع الذي يكتنف داخل المسجد وخارجه فطالما أعجبه المعمار الإسلامي أينما وجد.

تحرك شعيب من مجلسه واقفًا فحمل حقيبته وتوجه إلى مكان الضريح ليجد أمامه العجوز الذي التقى به في الخارج يتمسح بالضريح هامسًا راجيًا، لم يعرْه الانتباه رغم ما يكمن في نفسه تجاه ذلك الرجل الذي ظهر فجأة دون مقدمات... جلس شعيب مستندًا إلى جدار في مواجهة الضريح، وقرأ الفاتحة للولي الذي لا يعرف عن قصته شيئًا وظل يدعو بكل ما بداخله من إيمان لعل الدعاء في مكانه هذا يجدي نفعا... كان فضوله يسحبه لمعرفة القصة الحقيقية للجسد الراقد بالداخل وما إذا كانت بركاته تحل على الزائرين الواقفين أمامه أم لا؟

أغمض شعيب عينه واستكمل أدعيته حتى سكنت نفسه وشعر بهدوء واطمئنان كبيرين، وظلت الأفكار في رأسه تخفت حتى تلاشت وتوقفت فاستشعر سكينة لا يعرف مصدرها الحقيقي وشعر بجسده المرهق يُسحب إلى الأسفل كأنه قد وزنه إلى الأبد حتى شرع بطريقة لا إرادية في نوم عميق، بيد أن أحلامه الغريبة أخذت بالانبعاث دون تمهيد أو دلالة.

ارتفع أذان الفجر وانتشر صدى موجاته في الخلاء... شهاب يخترق السماء ويتلاشى كالعدم في عتمة الفجر، الشمس ترسل أشعة خافتة من

وراء البحر تبدد بها ظلمة الليل الموحشة معلنة بداية يوم جديد... صياد ماهر أعد شباكه ودفع بقاربه إلى ماء البحر وقفز بداخله وتوغل في المياه بضربات مجدافه فرمى بشباكه وجلس ينتظر... سرب ضخم من طيور الدقانيش يمر ككتلة داكنة ينعكس ظلها على المياه في موسم الهجرة للغرب... غريق يستنجد ويعلو صوته باستغاثة ولا يشعر به أحد فيبتلع من الماء المالح ما يزيد عن طاقته وتأبى الجاذبية جميع محاولاته للنجاة فتسحبه المياه إلى ظلمتها... رجال بثياب الحج على متن سفينة عملاقة يلقون بجثة مكفنة في عرض البحر فتحملها المياه وتدفعها الأمواج بنعومة إلى الشاطئ... طفل وحيد يعبث بحبات الرمال على الشاطئ رست الجثة إلى جواره فامتزج نسيم البحر في أنفه برائحة مسك طيب منبعثة من الجثة فهرع يبحث عن أهله باكيًا صارخًا... أناس يتحلقون حول الجسد المكفن ورائحة المسك تداهم أنوفهم والحديث بينهم استحال إلى لغط... الكفن جاف لم تطله المياه، والجسد سليم غير منتفخ ورائحته طيبة نافذة... ولي... ورب الكعبة ولي من الأولياء... حمل الجمع الجسد وأقبروه أمام الساحل والشمس تتوارى في الأفق... شاهد القبر ممحية حروفه ورجلًا ذا هيبة يرفع مقامًا جديدًا للمقبور بشاهد واضح على أثر رؤية تكررت في منامه... خيام كثيرة مضروبة أوتادها حول المقام تنبعث منها صرخات أطفال وزغاريد نساء من حين لآخر... خيالة يتسابقون بجيادهم التي يعلو صهيلها في جوف الخلاء الواقع في حدود المقام... أطفال يلعبون ونساء يُعددن الطعام ويتجاذبن أطراف الحديث، ورجال يتمسحون بالمقام هامسين بأمانيهم السرية... وجماعة أخرى يحملون في نفوسهم مبادئ غليظة من التعصب والتشدد، يقوضون بها الخيام ويقتلون مظاهر الفرح والسعادة ويسحقون

ما هو على غير هواهم من المعتقدات، وينهون عما يحدث في رحاب المقام... ويتسلل أحدهم وسط الجموع فيذهب إلى المقام ليضرب بكفيه الهيكل الخارجي له ضربات قوية عالية أخذ صداها يصدح في السماء وينتهي كل شيء.

انتفض شعيب مذعورًا من سباته بأنفاس مضطربة على وقع الضربات العالية التي سمعها في منامه، ظل في حالة من الذهول وضربات قلبه غير منتظمة وبقي لدقيقة لا يعي شيئا مما يحدث... انتظمت أنفاسه وضربات قلبه، وترجم بعقله الأحداث وأدرك أن ما حدث ما هو إلا حلم عابر ولكنه على الرغم من ذلك حلم غريب... نظر إلى جواره فوجد العجوز جالسًا يبتسم له وبادره بإيماءة من رأسه كتحية فردها شعيب بابتسامة فاترة من التي ترتسم على وجوه حديثي الاستيقاظ... تحول شعيب بوجهه عن العجوز بيد أن الأخير باغته بصوت متحشرج قائلًا:

-منور مطروح يا ابني، شكلك ابن حلال.

تعجب شعيب من اللهجة العرباوية التي يتحدث بها العجوز وشعر برغبة داخلية في عدم التحدث إلى ذلك الرجل وود لو أنه لم يبادره بالحديث لكنه وبرغم تلك الأفكار في رأسه رد تحيته على مضض:

-متشكر يا حاج، تعيش.

فضحك العجوز ضحكة اكتملت بسعالٍ شديدٍ وقال:

- أعيش! الأعمار بإيد ربنا يا ابني، اللي باقي مش قد اللي راح.

- ونعم بالله يا حاج، ربنا يديك الصحة.

- تسلم يا ابني ربنا يعافيك من كل سوء.

صمت شعيب واستجمع أفكاره وشعر بألفة للعجوز وآنس للحديث معه رغم قصره، ولكن جلسته بالخارج جعلته يقع في نفسه موقع المجاذيب غريبي الأطوار على عكس تودده وطريقته التي لا تنم إلا عن نفس طيبة، وبينما كان شعيب غارقًا في أفكاره سحب الرجل طرف لإكمال الحديث وسأله:

-قُمت مفزوع من نومك ليه؟؟! لعله خير؟؟

-خير يا حاج إن شاء الله، أنت لأخدت بالك؟؟

- ما تآخذنيش يا ابني، أنا راجل كبير ومش قاصد إني أركز معاك، الصدفة خلت عيني تقع عليك.

- ما يهمكش يا حاج، أنت زي ابويا.

ضحك العجوز مرة أخرى واسترسل بالضحك دون سبب حتى انتهت ضحكته بحشرجة تنم عن ضيق في المسالك التنفسية؛ فسأله شعيب مبتسما لما اعترى الرجل من ضحك هستيري:

-بتضحك على أيه يا حاج؟ ضحكنا معاك.

- أصلك يا ابني بتقول زي ابوك والحقيقة إني زي جدك... أنت اسمك أيه يابني؟

- شعيب يا حاج.

- سيدي كان اسمه شعيب.

شعيب فطن إلى أن كلمة سيدي تعني جده فسأله مستدركًا باقي الحديث:

-وانت اسمك أيه يا حاج؟

- مجاهد، الشيخ مجاهد الحبوني من قبيلة آل حبون.

- عاشت الأسامي يا حاج.

- صحيح يا ابني الأسامي هي اللي بتعيش، إنت منين يا شعيب شكلك قهراوي.

جفل شعيب وتحير من فطنة العجوز وقدرته – رغم كبر سنه – على تمييز لهجته فلم يجد بدا من مواصلة الحديث معه فرد قائلًا:

- تمام يا حاج، بس قُل لي عرفت ازاي؟

- عرفت ازاى!! يا ابني أنا أسناني وقعت في الترحال، الزمن هو اللي خاين ولولا العجز ونفاد الصحة كنت كملت بس يابني الدنيا مش بالمزاج ولما العجز طالني قُلت استقر ونفسي مالت اقعد جار سيدي العوام!

- على كدا يا حاج انت نزلت القاهرة؟

- نزلت القاهرة وروحت وجيت فيها، لفيت على المقامات وعرفت خلق طيبة واتعلمت منهم كنوز شايلها في قلبي.

- بس الحياة في القاهرة بقت صعبة يا شيخ مجاهد والخلق والنفوس ما بقتش زي زمان.

- يابني الحياة صعبة من ساعة ما آدم نزل الأرض، ادعي ربك بقوة الظهر وارمي حمولك عليه.

- ونعم بالله ... هو مين سيدي العوام ده يا شيخ مجاهد؟؟

نظر العجوز لشعيب ولم ينطق بكلمة ورفع سبابته مشيرًا لأعلى، فلم يستوعب شعيب ما هو المغزى من الإشارة إلا في الحين الذي صدح فيه أذان العشاء في أرجاء المسجد وخارجه بطبقة نافذة تقشعر لها الأبدان.

مشى شعيب وحيدًا بمحاذاة الكورنيش وعلى يساره امتد البحر في ظلمة داكنة إلى ما لا نهاية، خطا على مهل بخطوات ثقيلة وجسد متعب ساحبًا معه ثقل مخاوفه غير منتبه لما يدور حوله من حركة تكتنف الكورنيش دون توقف... استشعر ثقل الحقيبة على ظهره فلم يجد بدًّا من إنعاش جسده بوجبة تزيد من طاقته ليتمكن من استكمال طريقه إلى أن يحين موعد النوم... عبر الطريق موليًّا ظهره للبحر قاصدًا قلب المدينة، فحثَّ خطاه بطاقة مستعارة من الشحوم الخفيفة الزائدة في جسده واخترق الشوارع الرئيسية لاختصار الشوارع الجانبية المتفرعة منها.

العربات تقطع الطرق، والسكان الأصليون للمدينة منتشرون في الشوارع يبتاعون احتياجاتهم من المحلات المنتشرة على جانبي الطرق، المقاهي مترعة بقاطنيها، وأنفار من باعة جائلين اكتظت عرباتهم بصنوف مختلفة عارضين إياها منسقة تحت أعمدة الإنارة الليلية.

شعر شعيب بشيء من الخوف بعد حديثه مع الشيخ مجاهد فحمل خوفه وتوجه إلى شارع علم الروم بعد أن قطع مسافة غير قصيرة فوصل إلى أحد المطاعم القائمة بقلب الشارع ودخل إليه فطلب من الطعام ما يسد به فراغ معدته وشرع في تناوله.

* * *

مدينة النجيلة

الساعات الأولى من الليل

القمر في طريقه للمحاق والنجوم مفترشة السماء من حوله تزينها بأعداد فلكية، الهواء نقي مائل للبرودة والرياح شبه شديدة جعلت أشجار التين اليابسة أغصانها تهتز كأشباح مرعبة في الظلام... سيارة نصف نقل دفع رباعي ماركة تويوتا قطعت طريق (مطروح – السلوم) الممتد بطول الساحل الغربي لمصر من محافظة مطروح شرقًا إلى الحدود المصرية الليبية غربًا... انحرفت السيارة عن الطريق الغارق في ظلام أعمدة الإنارة المعطلة، لتخترق مزرعة للتين قائمة على جانب الطريق لا يشعر بوجودها سوى الطبيعة... أطفأ سلومة مصابيح الرؤية الليلية ودلف إلى المدق المضروب في الأرض قاسمًا المزرعة إلى نصفين، تحركت السيارة ببطء شديد في الظلام وأضواء خافتة توهجت من أمامها في البعيد... الرؤية غير واضحة في الظلام وأجسام صغيرة تمر من أمام زجاج السيارة الأمامي بسرعة بين الحين والآخر، لم يتسلل الخوف إلى قلب سلومة الجالس أمام عجلة القيادة فقد اعتاد الظلمة ونجاحاته كلها في الحياة كانت في جوف الليل... قطع سلومة المسافة إلى أن استوت به السيارة أمام فيلا قائمة أعمدتها في منتصف المزرعة... أبطل المحرك وترجل فأغلق باب السيارة وأخذ يعدل من هندام جلبابه الأبيض المغطى نصفه الأعلى تحت صديري رمادي اللون.

صعد السلم المؤدي لباب الفيلا فتسارعت ضربات قلبه خوفًا وقلقًا متذكرًا المكالمة الهاتفية التي جعلته يقطع تلك المسافة فسحب شهيقًا عميقًا من أنفه جعل صدره العريض ينتفخ بصورة واضحة وأخرج الزفير بهدوء من فمه المستقر أسفل وجهه الأسمر فهدأت ضربات قلبه المتتالية بعض الشيء بعد تكرار العملية عدة مرات.

تمالك نفسه حتى لا يظهر توتره ودق الجرس ففتح الباب عن خادم هزيل الجسد أشار إليه بيده دون أن يتكلم ليتبعه، فأغلق الباب من خلفه واتبع الخادم.

وفي الداخل كانت الفيلا مترعة بأثاث ثمين ينم عن ترف فلم يتفاجأ سلومة بالمنظر لأنه طالما تكررت زيارته إلى هذا المكان.

قطع الردهة متبعًا الخادم فوصلا إلى الحجرة نفسها التي تعقد فيها جلساته مع الرجل الذي ينتظره بالداخل، نقر الخادم نقرات خفيفة على باب الغرفة وفتحه قبل أن يأذن له بالدخول.

كانت الحجرة عبارة عن مكتبة تمتلئ جدرانها الأربعة برفوف خشبية وضع عليها الكثير من الكتب والمراجع ويستقر في أحد أركانها مكتب يجلس من ورائه رجل قوي البنيان وملامحه قاسية لا تقل صلابة عن جسده تزيد من قساوتها لحيته المسترسلة في الطول.

استغرق الجالس من وراء المكتب في قراءة أحد الكتب ولم ينتبه للحضور، فخرج الخادم وأغلق الباب من ورائه وترك سلومة وحيدًا فتسارعت ضربات قلبه من جديد وشعر بالتوتر يجتاح نفسه مرة أخرى وأصبح مضطربًا لا يعلم ما ينبغي عليه فعله.

تمالك أعصابه مرة أخرى وتشجع لقطع حالة الصمت التي تسببت في اضطرابه فسعل قاصدًا لفت انتباه الرجل الذي يقتعد المكتب لكنه لم يبدِ أي ردة فعل وبقي كالأصنام الجامدة.

انتظر سلومة عدة دقائق حتى واتته شجاعة النطق وتكلم بصعوبة بعد أن ازدرد ريقه قائلًا:

-السلام عليكم يا عمدة.

رفع الرجل رأسه بتثاقل ونظر إليه نظرة ثاقبة ولم يرد عليه بالتحية واستغرق في القراءة مرة أخرى بعد أن أشار إليه بالجلوس.

جلس على الكرسي أمام المكتب وظل الصمت مطبقًا على المكان كأنه أبدي لا نهاية له، الصمت مرعب، في الصمت تحتد الأفكار وتزداد التوقعات ويطول الزمن على المنتظر ولو كان الصمت لدقائق، وما يجعل الأمر يزداد صعوبة على نفس سلومة هو عدم رد التحية.

الوضع أصبح لا يطاق بالنسبة له وهواجس الإنسان قد تلقي به في حالة شديدة من الخوف، ربما ارتكب خطأ لم يدركه بعد، لكن ما من أخطاء قد ارتكبها وأدواره كلها والأعمال الموكلة له تتم على أفضل ما قد يتم عليه دور أو عمل.

ما هي المصيبة المسببة لمثل هذا الجفاء في التعامل إذن؟! لعله علم بما حدث أخيرًا من صفقات دون علمه؟! ستمر تلك الدقائق الكريهة بأي حال من الأحوال فالعالم كله في حالة من الانتظار، في محنة من الانتظار فالانتظار محنة وليس حالة.

توقف هدير الأفكار في رأسه في اللحظة التي أغلق فيها العمدة الكتاب الذي اقتعد على المكتب ليقرأه وتوجه إلى أحد الرفوف فوضع عليه الكتاب وما لبث حتى نطق وهو عائد إلى مقعده وراء المكتب قائلًا بصوت نفذ إلى نفس سلومة الذي أهلكه الانتظار:

-عامل أيه يا سلومة؟

اضطرب سلومة من النبرة التي خرجت بها التحية فلا بد أن تلك الصيغة وراؤها ما لا يحمد عقباه لكنه لم يستغرق في تحليل نبرات الرجل فما من ذلك أي طائل أو نافع وما هو إلا مضيعة للوقت فرد التحية في أدب قائلًا:

- تمام والله يا عمدة يا رب تكون بخير.

- بخير يا حبيبي بخير، مش ظاهر ليه يا سلومة؟

- مشغول والله يا عمدة، الدنيا وخداني شوية.

- الدنيا ولا المصالح يا سلومة اللي بتتعمل من ورا ظهري، ياكش تكون فاكر إني قاعد هنا وغفلان عن اللي بيحصل.

صمت سلومة مصدومًا وبدا على وجهه أثر الصدمة وغرق للحظة لا يعرف فيها ما الذي يتوجب عليه قوله لكنه رد أخيرًا متظاهرًا بعدم الفهم وقال:

-مصالح ايه يا عمدة أنا مش فاهم قصدك.

ضرب العمدة براحتيه على المكتب وأشاح بنظره عن سلومة وصمت للحظات كانت ثقيلة على نفس سلومة ومن ثم مسح وجهه بكفيه وتنهد تنهيدة مليئة بالغضب ففتح أحد أدراج المكتب الذي يقتعده فأخرج منه

علبة صغيرة من الفضة فتحها وسحب منها قطعة من الأفيون بحجم عقلة الإصبع وامتصها كاملة وأخذ يذيبها في فمه مستمتعًا بمرارتها واستغرق في ذلك دقائق؛ فضاق بسلومة الحال فقاطع لحظات انتشاء العمدة وقال:

-أنا مش فاهم حاجة يا عمدة من كلامك، ولا فاهم لعصبيتك سبب.

- هتفهم كل حاجة يا سلومة، هتفهم.

- يا ريت يا عمدة، علشان دماغي اتبرجلت.

- بلاش استهبال يا سلومة، وما تعملش نفسك مجنون ومش فاهم قصدي.

- ما أنا مش فاهم فعلًا يا عمدة!

- بص يابني أنا قلت لك اني مش غفلان عن حاجة وما فيش حاجة بتعدي من على السلك غير لما اكون عارف هي طالعة من عند مين ومين اللي واخدها ورايحة على فين، الطلقة يابني عارف طريقها من ساعة ما بتتحرك لحد لما تدخل أي مخزن، فما تعمليش فيها مجنون علشان عيب وكدا أزعل منك يا سلومة، عاوزني أزعل يا سلومة؟

- أنا ما اقدرش على زعلك يا عمدة.

- جدع يا سلومة، إنت ما تقدرش على زعلي، جدع!

غضب سلومة وبدا على قسمات وجهه علامات الغضب فهو يكره الشعور بالضعف ويكره أكثر الشعور الذي ينتابه عندما يكون عاجزًا عن إبداء أي رد فعل تجاه الشخص الذي يشعر أمامه بالضعف لكنه على دراية جيدة بأن العمدة قادر ببساطة أن يرسله للجحيم دون صعوبة أو أي شعور بالذنب مما يصاب به العاديون من البشر، وشعر العمدة بما طرأ

على سلومة من تغيرات في قسمات وجهه التي أظهرت علامات الغضب فأحب أن يزيد من غضبه مستمتعًا بذلك فسأله بنبرة مليئة بالسخرية:

-خير يا سلومة إنت تعبان؟!

ازداد غضب سلومة من النبرة التهكمية التي يتحدث بها العمدة لكنه ومع ذلك استجمع كل ما بداخله من هدوء مخزون لأوقات مثل هذه حتى لا يتيح للعمدة فرصة التلذذ بإثارة مشاعره فرد عليه ببرود قائلًا:

-لا يا عمدة أنا صحتي عال وما فيش أحسن من كدا.

- عال أوي يا سلومة، قل لي بقى المصلحة الأخيرة اللي انت عملتها لحسابك، مرزقتك فيها كانت كام؟!

استمر سلومة في تجاهل الكلمات التي يلقيها العمدة على مسمعه فأجاب عن سؤاله مستنكرا:

-مصلحة ايه يا عمدة اللي انت بتتكلم عنها؟!

- الشغل اللي نزلت حملته على ثلاث عربيات من واحة الجغبوب وطلعت بيه على الضبعة، دي اسمها مصلحة ولا لا يا سلومة، لا ومن ورا ضهري... يا سلومة أنا المدقات والوديان اللي في الغرب محفور عليها اسمي أنا العمدة طخارة يا سلومة، أنت نسيتني ولا أيه، وبعدين يا أخي قل لي اسندك ولا مش خايف على نفسك يا أخي؟!

في لحظات تذكر سلومة القصة الكاملة التى كان يسمعها عن واحة الجغبوب حيث كانت الجغبوب فيما مضى تابعة للمملكة المصرية المحتلة من قبل الإنجليز في الوقت الذي كانت القوات الإيطالية تهيمن فيه على الأراضي الليبية.

في الربع الأول من القرن العشرين كانت القوات الإيطالية قد بدأت تتكبد خسائر فادحة من قبل المقاومة الليبية فأرادت أن تمنع الإمدادات عن حركة الجهاد السنوسية بكل السبل، وبصفة السيادة التي كانت تتمتع بها على الأراضي الليبية ألحت دولة الاحتلال الإيطالية على ضرورة ترسيم الحدود الغربية للحد من وصول المساعدات من التابعين للحركة الموجودين على الأراضي المصرية، فأرسلت الحكومة الإيطالية لجنة للمفاوضة مع نظيرتها التي شكلتها الحكومة المصرية، استمرت المفاوضات إلى أن وصل بالإيطاليين الحال إلى الموافقة على سحب قواتها المنتشرة في واحة سيوة مقابل أن يكف المصريون عن ادعاء ملكية الجغبوب بأي شكل، فكان الظاهر أن القوات الإيطالية أرادت ترسيم الحدود لكن الباطن هو منع الإمدادات عن المقاومة التي ظهرت قوتها وفاعليتها على إثر الدعم، وتم توقيع الاتفاقية بين رئيسي اللجنتين المصرية والإيطالية وصادق عليها البرلمان المصري وصدر من بعد ذلك مرسوم ملكي وقع عليه الملك لتدخل الاتفاقية حيز التنفيذ.

وعلى إثر تلك الاتفاقية قامت دولة الاحتلال الإيطالية بنشر أسلاك حدودية ممتدة على طول الحدود المصرية الليبية لمنع أي إمدادات من سلاح ومؤن أو أفراد لشد الخناق على الحركة السنوسية وردعها بشتى السبل.

تذكر سلومة القصة في ثوانٍ كمشهد كامل استدعته ذاكرته وجال من بعده خاطره في صفقته الأخيرة التي تمت عن طريق واحة الجغبوب التي كانت من أنجح أعماله والأولى لحسابه الشخصي وكيف كانت تلك

الصفقة في مأمن من رجال حرس الحدود المنتشرة فصائلهم وسراياهم ودورياتهم على طول الحدود الغربية مع ليبيا.

ففي أعقاب ثورة فبراير الليبية كان الاضطراب الأمني قد تفشى في كل بقاع الأراضي الليبية وازداد على إثره نشاط المهربين وتجار السلاح والمخدرات فكانت ليبيا هي المنبع الرئيسي لانتشار السلاح ووصوله إلى أيدي التكفيريين في أراضي سيناء أو تهريبه إلى غزة عبر الأنفاق عن طريق أولئك الذين لا يهتمون لشيء سوى المادة ولا يطمحون في شيء إلا الثراء، فعلى طول الحدود يوجد ثلاث نقاط أساسية – إلى جانب الثانوية – يتم من خلالها التهريب إلى الأراضي المصرية والعكس، والجغبوب تعد النقطة الأفضل التي تتم من خلالها تلك الأعمال فهي الأكثر أمانًا على الحدود لموقعها القريب في محيط بحر الرمال الأعظم مما يصعب من مهام رجال حرس الحدود في تلك النقطة، فكما كانت في الماضي السر في دعم الحركة الدفاعية ضد المحتل الإيطالي أصبحت فيما بعد بوابة الانفلاتات الأمنية التي يتسبب فيها ضعاف النفوس.

فأصبحت الجغبوب بما يعادل كنزًا بالنسبة لسلومة، وكانت الصفقة الأخيرة التي تمت من خلالها بمنزلة نقلة جيدة في حياته وتسببت في إثرائه بعض الشيء، وعلى الرغم من المسافة التي قطعها لإتمام تلك الصفقة فهي من دون أدنى شك الأفضل بين كل شطحاته التي أنهاها منذ بداية عهده في عالم التهريبات، وبينما كان سلومة غارقًا في أفكاره عن الجغبوب وصفقته وأرباحها سحبه العمدة من سلسال أفكاره وسأله:

- إنت بتوه مني ليه في الكلام يا سلومة؟! ولا بتحسب مكاسب الطلعة الأخيرة؟!

- لا أبدًا يا عمدة مش تايه ولا حاجة، ما تآخذنيش.

- عموما يا سيدي حلال عليك المكسب، وأنا ما كنتش مكلمك وجايبك هنا علشان أكلمك بخصوص الموضوع ده، بس أنا حبيت أعرفك إن مافيش حاجة تغيب عن العمدة.

استاء سلومة لذكر العمدة أن هناك موضوعًا آخر يود التحدث عنه وتضاربت مشاعره في الوقت نفسه وتنفس الصعداء لفراغه من الحديث عن موضوع الصفقة وانبسطت أساريره مع تغير نبرة الرجل وتحول ردود أفعاله إلى لينة هينة بالمفعول السحري لمخدر الأفيون، وتحير سلومة فيما يود العمدة في الحديث بشأنه فسأله:

- أيه الموضوع التاني اللي تقصده في كلامك يا عمدة؟

- طلعة جديدة يا سلومة، شحنة تدخلها في خمس عربيات، تروح بعربيتك وتحملها وترجع بالأربعة اللي هناك، بس الشحنة لازم تدخل قريب يا سلومة مش أكثر من ثلاثة أيام عددهم من نهار بكرة، ولك الثلث يا سلومة.

- خمس عربيات يعني شحنة كبيرة، يعني هنزل الأول على سيوة علشان أدخل الجغبوب من هناك، صح؟

- لا يا سلومة الشغل ده أنت هتدخله من وادي عقرب أسرع.

- وادي عقرب!

- آه يا سلومة وادي عقرب نسيت ولا إيه ! .. زي ما بتدخل الشغل كل مرة.

- بس دول خمس عربيات يا عمدة، يعني حرس الحدود لو مالمحناش الطيران هيلمحنا لو حلق في أي ساعة وساعتها هيدكونا !

- سيبك من الكلام ده يا سلومة، إحنا لا بيهمنا حرس ولا طيران، ولا قلبك خار بقى وبقيت تخاف الجبل واللي فيه؟!!

الرجل فظ لا يجيد التحدث للآخرين وتهكماته مريبة وغروره مرض لا شأن له بالطبيعيين من الناس، ونفسه مشطورة لنصفين بفاعل إدمان الأفيون فتارة ودود وتارة أخرى مريب لا يطاق؛ فضاق سلومة بتصرفاته وطريقته وأفعاله وود من أعمق نقطة بداخله أن ينهي حياته على الأرض ويرتاح من فظاظته نهائيًا لكنه غير قادر بأي شكل من الأشكال على فعل أي شيء مما يدور بخلده فهو مجبور بالأمر الواقع ولعل مصيبة تأتي بأجله سريعًا فيستريح من مرارة العمل مع هذا الرجل، فغلبه الاستياء ورد عليه في غرور متعمد:

- أنت عارف يا عمدة إن الجبل بتاعنا واحنا بتوع الجبل، لا بنخاف منه ولا من غيره.

- جدع يا سلومة كدا أنا أحبك، اسمع بقى. في عيل من العيال اللي هتدخل ليبيا يوم الطلعة الواد ده حد يعز عليا، موصي عليه جامد جدًّا خلي إسرافيل ياخد باله منه وانت عارف أرزوقة هيعمل ايه يومها... وتوكل على الله انت شوف طريقك.

- ماشي يا عمدة، تأمرني بحاجة؟

- لا، بالسلامة انت.

خرج سلومة من باب الفيلا وأدار محرك سيارته رباعية الدفع وتوجه إلى الطريق الساحلي المؤدي لمدينة السلوم ليبدأ الطريق إلى منزله في قرية بقبق الواقعة على ساحل البحر وهو في حالة شديدة من الغضب.

* * *

مدينة مرسى مطروح

جلس شعيب على أحد المقاعد المخصصة للانتظار التابعة لمحطة حافلات السوبر جيت الموجودة في أول طريق مطروح – الإسكندرية بعد أن وصل إليها بواسطة تاكسي أجرة قادمًا من شارع علم الروم، جلس بجسد خائر من الإرهاق والتعب لا يتمنى شيئًا من الوجود سوى نومة هنيئة.

وفي لحظات الإرهاق الشديدة والشعور بالنعاس وفي الوقت الذي تتساقط فيه الأجفان مضطرة، يشعر الإنسان بحالة لا تكون إلا مبعثة للذكريات الأليمة، فتذكر شعيب على رغم من إرادته أيام دراسته الجامعية الأولى في القانون.

كان شعيب طالبًا مجتهدًا فيما مضى، يلتزم بمواعيد محاضراته ويقتعد الصفوف الأولى في المدرجات، يجلس ويدون المحاضرات التي يتلقاها من أساتذته المحاضرين، وكان يقوم بتلخيص تلك المحاضرات في مذكرات كمساعدة منه لزملائه لفهم المقرر الدراسي، وكان متفوقًا للدرجة التي جعلت زملاءه يتوقعون له مستقبلًا باهرًا في القانون وأنه سيصبح فردًا من فطاحلته بمرور الأيام.

كانت أمنية شعيب الوحيدة منذ اللحظة الأولى لالتحاقه بكلية الحقوق وجدَّ وسهر الليالي لأجل تحقيقها هي الانخراط في السلك القضائي لكنه وعلى الرغم من تفوقه لم تتحقق أمنيته؛ فبعدما بذل كل ما بوسعه من اجتهاد رفضت الحياة مكافأته بطريقة مفاجئة عندما علم أن ملفه تم رفضه بصورة نهائية مستبعدة من الالتماسات والتظلمات لأن فردًا من الدرجة الثانية من عائلته ينتمي بصورة نشطة لحركة عالمية محظورة

وبهذا الشكل قوض حلمه إلى الأبد؛ فحاول محاولات بائسة للسفر إلى بلاد عربية وأجنبية وباءت محاولاته هي الأخرى بالفشل وتملك حاله اليأس فاعتزم على إثر إخفاقاته الهجرة غير الشرعية بأي صورة مهما كلفه ذلك من صعاب بعدما شعر بأن الطرق كلها موصدة من أمامه.

وبعد محاولات أهله الكثيرة لإثنائه عما اعتزم السير تجاهه سلموا للأمر الواقع مضطرين إلى ذلك.

وبالصدفة كان لشعيب زميل مغترب من محافظة الفيوم ظل على علاقة به بعد سنوات الدراسة وكان من نسل قبيلة أولاد علي واسمه عبد المتجلي، كان عبد المتجلي قريبًا منه للدرجة التي يتمكن شعيب من خلالها من التحدث معه في مثل هذه الأمور فحذره عبد المتجلي من مخاطر الهجرة غير الشرعية ولكنه وبعد مهاترات كثيرة خضع لرغبته إكرامًا لعلاقة الصداقة المضروبة بينهما، فتواصل عبد المتجلي مع أبناء عمومته المقيمين في ضواحي مدينة السلوم لمساعدة شعيب في طريقه للمجهول فما كان منهم إلا تلبية طلبه مجاملةً له وتقديرًا لروابط الدم المشتركة بينهم، وفي مكالمة هاتفية أخبر واحد من أقارب عبد المتجلي شعيبًا بالميعاد المحدد لحضوره من أجل السفر واتخذ شعيب القرار دون أن يهتم لآلام قلبه المفتور وأنهى علاقته بمحبوبته بعد أن اتخذ القرار بالرحيل وتركها مكلومة الفؤاد متألمة لا تدري عن أراضيه شيئًا، ووصل الحال بشعيب لمرحلة من اليأس جعلته مضطرًا لعدم التفكير في عواقب أي شيء، فاتخذ قراره ولم يأبه لفتاة أحلامه ولا لأسرته.

ففي بعض الأحيان تلزمنا الحياة بالحيد عن الطريق الصحيح جبرًا، حتى ولو وددنا غير ذلك فالحياة هي الآمرة الناهية في نهاية المطاف على الرغم من أنوف البشر.

إن الشروط التي تضعها الحياة في الطريق قد تجعل من البشر أناسًا آخرين مختلفين تمامًا عما هم عليه بالأصل، وعندما يتراكم الألم واليأس داخل النفوس يتوه البشر عن الواقع وتتغير الحقيقة فتتحول الحياة أمامهم لعقابات لا نهاية لها، وفي تلك الأثناء إما أن يبحثوا عن الأمل في نفوسهم لإحياء الواقع مرة أخرى أو يتعايشوا مع الوهم بشكل سرمدي ولن يجدوا لهم منه مخرجًا أو عنه بديلًا.

بهذه الطريقة تحول شعيب من شخص يحب القانون ويبجله إلى شخص في طريقه للخروج عن القانون في لحظة من اليأس تملكته دون أن يشعر بذلك مطلقًا، غشّى اليأس على بصيرته وألقى به في عتمة لا يدرك عاقبتها، تحولت فيها حياته إلى شيء مجهول غير واضح المعالم، ربما لو تحلى بشيء من الإيمان بأن الأقدار تمهد لنا الصالح في الطريق لوجد الأمل في نقطة ما بداخل نفسه لكن الإحباط هو آفة المحاولات فعندما يجد المرء أن محاولاته لم تصب أهدافها يصاب بإحباط يشعر عن طريقه بتعاسة الحظ وينقم على الأقدار فيستسلم عن المقاومة وإعادة المحاولة.

ومع احتدام دوامة الأفكار في رأس شعيب اغرورقت عيناه، وشعر لأول مرة منذ بداية الطريق بوحدة شديدة لم يشعر بها من قبل واستشرت في جنبات نفسه حالة من البؤس مع حلول الأفكار بلا هوادة وود لو أن كل شيء لم يكن من الأساس، وانتشلته من غياهب الحزن رنة من هاتفه

فسحب الهاتف من جيب بنطاله وأجاب على المتصل وأبلغه بموقعه وبقي دقائق في مكانه حتى ظهرت أمامه سيارة تويوتا رانج روفر فتحرك شعيب نحو السيارة في اتجاه السائق وسأله دون مقدمات:

- أنت إسرافيل؟

- ادخل يا عم شعيب، دوختني معاك.

- أنا قُلت أحسن حاجة اقعد هنا في الموقف علشان مانتوهش من بعض.

- ماشي يا سيدي حمدا لله على السلامة.

- الله يسلمك.

- منور مطروح كلها يا شعيب والله، عبد المتجلي وصاني عليك جامد، انت تعرفه من بدري؟

- كان زميلي في الدراسة وفضلنا بعد الدراسة صحاب.

- ربنا يديم المحبة، منور والله.

- حبيبي، تسلم.

انقطع الحديث وغرق شعيب بمجرد انقطاعه عن الواقع متذكرًا كلمات الشيخ مجاهد الرجل الغريب الذي تودد إليه دون سابق معرفة أو تعامل ومن غير أي سبب... تذكر القصة التي قصها عليه بعد صلاة العشاء قبل أن يتركه بخصوص سيدي العوام صاحب الضريح والكرامات التي تحل بمريديه.

بدأت القصة كما يرويها الشهود منذ عهد الملك فؤاد الأول عندما عثر أهل مطروح على جثة طافية في المياه تدفعها الأمواج لتستقر على الشاطئ،

لم تتضرر الجثة من مياه البحر ولم يلحق بالجسد أي أذى بل كانت رائحته يفوح منها المسك فاحتسبه أهالي مطروح وليًّا من أولياء الله الصالحين.

في ذلك الوقت كانت مصر قبل نظام الحكم المحلي مقسمة لأقاليم تابعة جميعها إلى المملكة المصرية وكانت المنطقة الغربية أحد تلك الأقاليم التابعة للملكة تضم "مطروح" والواحات والوادي الجديد وكان حاكمها يدعي اللواء فؤاد المهداوي، تكررت رؤية عدة مرات في ليالي ذلك الحاكم أقضت مضجعه، ولما ألحت عليه الرؤية قص على أصدقائه ما مفاده أنه يرى ذلك العوام في منامه يطلب منه أن يرفع له مقامًا جديدًا فما كان من أصدقائه إلا أن أشاروا عليه بأن يرفع مقامًا لهذا الولي داخل مسجد جديد، فنفذ ما أشار عليه به أصدقاؤه وعندما حُمل الجثمان إلى المقام الجديد فاحت رائحة مسك نافذة منبعثة من الجثمان فتأكدت كرامات الولي مرة أخرى.

انتشرت كرامات العوام على نطاق واسع في البقعة التي تحتل غرب المملكة فتوافد على المقام الزوار والمريدون من كل القرى والنجوع لاعتقادهم أن بركاته تحل على من يكون حاضرًا إلى جواره، فأصبحت الزيارات متتالية واستشرت الظاهرة فأعلنوا موعدًا محددًا لإقامة مولد للولي وسمي مولد سيدي العوام. ينتقل إليه القاصي والداني من أبناء الإقليم فتعلو الابتهالات والأناشيد في رحاب المقام لمدة ثلاثة أيام يعلن عنها بواسطة شخص يطوف كل بقعة من بقاع البدوية الواقعة غرب المملكة للإعلان عن الموعد، فيضربون أوتاد الخيام وينصبونها بجانب المقام وتعقد الزيجات فتعلو الزغاريد وتصدح صرخات الأطفال في الوجود مع البدء في

عمليات طهورهم ويتسابق الخيالة من الشباب بجيادهم وتدخل مظاهر الفرح إلى النفوس كلها في رحاب المقام.

وفي نهاية الثمانينيات من القرن العشرين وبعد انتشار الدعوة السلفية واشتداد دعوتها في الصحراء الغربية قرر المقيمون عليها بتقويض مظاهر الاحتفال وإنهاء فكرة وجود مولد وحذروا الناس من التجمع عند المسجد فانتهى المولد وانفض إلى الأبد لاعتقادهم أن كل هذه المظاهر تعد من الكفر والشرك بالله.

تذكر شعيب رواية أخرى يرويها أهالي مطروح بقوة حكاها له الشيخ مجاهد عن أصل العوام، ملخصها أنه في يوم من الأيام دخل على إمام مسجد سيدي العوام رجل طاعن في الكبر يدعي أنه من نسل العوام وأقسم للإمام على ذلك فلم يصدقه الإمام وطلب منه دليلًا على أقواله فغاب العجوز المسن وظهر مرة أخرى بعد شهور عديدة ومعه إثباتات ورقية قديمة توضح صحة كلامه بأن سيدي العوام ليبي الجنسية وقدم للإمام مخطوطة يقول مفادها بأن العوام من نسل سيدنا الإمام علي بن أبي طالب ﷺ وأنه كان ملقبًا بالأطرش وأبي البحار وولد في الجزائر في ولاية مستغانم وكان حافظًا للقرآن الكريم ومعلمًا له وكان يحب التقرب إلى الله في رحلات يقطعها إلى بيته الحرام وأنه وفي إحدى رحلاته إلى الحجاز وافته المنية على متن سفينة كانت تبحر به إلى البيت العتيق وكان معه نفر من أقاربه وحجاج آخرون من بلاد مجاورة فقرر الجميع الإذعان لرغبة ربان السفينة وألقوا بالجثمان إلى المياه عملًا بقانون البحار وقتها بعد تكفينه وأداء صلاة الجنازة على جثمانه، واختفت الجثة عن نظرهم بعد أن ظهرت

لآخر مرة بالقرب من ساحل مطروح، هكذا كانت قصة سيدي العوام كما تلقاها شعيب بلسان الشيخ مجاهد برواية من السكان الأصليين لمطروح.

أخذ شعيب يقارن بين أضغاث حلمه والقصة التي وضحها له الشيخ مجاهد عن العوام، ولاحظ التشابه بين تفاصيل حلمه و القصة التي يرويها العجوز فانتظر حتى انتهى الشيخ من حديثه وأنبأه بمشاهد الحلم وسأله عن تفسيره فصمت الشيخ لكنه ابتسم وربت على كتف شعيب وقال له والابتسامة على وجهه:

- الله أعلم بكل شيء، لعله خير.

فلم يفهم شعيب مقصده وكان قد ألفه لدرجة جعلته يمشي معه إلى منزله القريب من المسجد بعد صلاة العشاء وفي طريقه قص عليه ما اعتزم فعله من سفر إلى ليبيا عن طريق التسلل عبر الحدود، تعجب العجوز مما اعتزم شاب مثل شعيب فعله وحدثه الشيخ مجاهد بهدوء عن خطورة تلك التجربة وأن الكثير من الشباب الذين خاضوها ما هم إلا أموات الآن وأنهم ضلوا الطريق وظنوا أنهم مهاجرون في رحلة من الجحيم إلى جنة الله في الأرض عن طريق التسلل عبر الحدود أو الإبحار في قوارب ترتفع نسبة الهلاك فيها عن نسبة النجاة منها.

وكيف أن الكثير منهم يطمحون بحماقة للهروب من واقعهم المرير ومعيشتهم الصعبة إلى واقع أشد مرارة وأقبح حقيقة ومعيشة أكثر ضنكًا لا يكادون يخرجون من مشكلة حتى تلم بهم الأخرى.

ويظلون معرضين فيها إلى التشرد والجوع ولا يتمكنون من اكتساب أي حق من الحقوق الآدمية لعدم مشروعية هجرتهم فلا يجدون وظائف

بسبب عدم امتلاكهم لأوراق قانونية تمكنهم من ممارسة الحياة الطبيعية وأنهم لا ينفكون يهربون من يد الشرطة التي تلاحقهم في كل وقت فيلجؤون إلى التخفي ويعيشون عيشة المطاريد طوال الوقت وتلازمهم المخاوف في كل دقيقة وتصرف.

حكى له الشيخ مجاهد أيضا عن مصريين وأفارقة قابلهم في رحلاته الكثيرة إلى ليبيا مشردين لا مأوى لهم وآخرين لقوا حتفهم في رمال الصحراء في أثناء رحلتهم.

ظل شعيب يستمع لكلمات الشيخ مجاهد إلى النهاية وفي نفسه شيء من الرفض فوضح للشيخ أن قراره في طور التنفيذ وأن ساعات قليلة تفصله عن الوصول إلى الحدود ... لم يجد الشيخ مجاهد ما يقوله لشعيب وتمنى له السلامة في رحلته الخطيرة ودعا له المولى بظاهر الغيب أن يكون في عونه إذا ألمت به ملمة وأن يرزقه الصائب في تلك الرحلة، وتصافحا من بعد ذلك وانصرف كل منهما إلى طريقه فدخل الشيخ مجاهد لمنزله فلما دخل تحدث هاتفيًّا مع العمدة طخارة من مدينة النجيلة يوصيه بأن يقدم العون لشعيب في رحلته بحكم نفوذ العمدة في مثل تلك الأمور والأعمال وبحكم صلة القرابة التي تجمعه بالشيخ مجاهد، بتلكم الطريقة اطمأن الشيخ مجاهد أنه قد فعل ما بوسعه ومقدرته لمساعدة الشاب شعيب الذي ألفه دون دافع لذلك.

غرق شعيب داخل السيارة في نومه بعد أن أعياه التفكير والجهد الذي بذله على مدار يومه فانتصف تذكره لحكايات العجوز ما بين يقظة وحلم، وبينما كان شعيب غارقًا في سبات نومه ثبت إسرافيل مؤشر السرعة على

سرعة مائة كيلو في الساعة فقطع المسافة بين مدينة مرسى مطروح وقرية بقبق فيما يقارب ساعة وخمسين دقيقة.

وصل إلى القرية الغارقة في السكون بعامل الليل فاخترق غيابتها بالسيارة مرورًا ببيوت يطغى عليها الصمت والسكون إلى أن وصل إلى مربوعة على حدود القرية مع خلاء صحراء منطقة حباطة التي تظهر في الظلام مترامية كأنها ممتدة إلى ما لا نهاية.

استقر إسرافيل بالسيارة أمام بوابة المربوعة وركنها بمحاذاة سيارة سلومة فوخز شعيب وخزة لطيفة ليوقظه فانتفض شعيب من نومه مفزوعا متسائلًا في خوف:

- إحنا فين؟

- اهدأ يا شعيب مافيش أي حاجة، إحنا داخلين المربوعة علشان هنبات الليلة هنا.

صمت شعيب ولم يجد ما يقوله وتسلل خارجًا من السيارة لينتظر إسرافيل حتى يقوده للداخل.

* * *

قرية بقبق الساحلية

انتصف الليل وتلألأت النجوم الساهرة في السماء كعدد لا نهائي من قطع الألماس منثورة بعشوائية في الظلام الدامس، وتوارى وجه القمر العاكس لضوء الشمس فاختفى محاقًا تاركًا الأرض في عتمة غيابه، أشجار التين والزيتون انتشر حفيفها في الخلاء مع اختراق الريح لأغصانها، ولفحات برد قارسة انتشرت في الوجود مع اشتداد الريح بلا هوادة.

تفاجأ شعيب ببرودة الطقس بمجرد خروجه من داخل السيارة وتسلل إلى قلبه رهبة من المكان وشعر بحاجة ملحة للانخراط في سباتٍ عميقٍ على سرير مريح متدثرًا بغطاء برد ثقيل، تحرك إسرافيل تجاه بوابة المربوعة فتبعه شعيب حاملًا حقيبته التي أصبحت عبئًا على جسده ينوء بحمله.

فتح إسرافيل البوابة الحديدية للمربوعة ودخل ومن قبله شعيب، المنظر الداخلي للمربوعة لم يكن مألوفًا بالنسبة لشعيب الذي عاش ما سبق من عمره داخل القاهرة، حيث لا وجود لمثل هذه البنايات داخلها، في الداخل كانت المربوعة عبارة عن مَنزَل لجراج مسقوف بمظلة إسمنتية، تنير الجراج مصابيح صفراء خافتة وهو قائم على يسار المدخل، من أمام الجراج بناية مكونة من طابقين تحدها طُرقة مسورة بسور حديدي مُفرغ وتربطها بساحة الجراج سلالم رخامية، وفي مواجهة البوابة في نهاية الحوش شجرة توت في طريقها إلى التحليق خارج حدود المربوعة.

صعد إسرافيل السلالم وتبعه شعيب ودلف من ورائه داخل البناية، في مواجهة مدخل البناية المفتوح ممر ينتهي بسلالم ترتفع إلى الطابق الأول

والثاني وإلى يسار المدخل غرفة واسعة تغطي أرضيتها سجادة حمراء من الصوف الناعم كانت كافية لإخفاء بلاط الغرفة كاملًا، في الغرفة نمارق سوداء مصفوفة أسفل الجدران الأربعة وقنديل بنور أبيض يتدلى من منتصف السقف ينير الغرفة إنارة جيدة ومن تحته طبلية خشبية وضع عليها صينية تحمل دورقًا وأكوابًا وجميعها من النحاس.

بداخل الغرفة ومعلقًا على جدرانها وجد شعيب محنطات لأفعى ضخمة وقنفذ بحجم كف اليد نافرة أشواكه وعدد كبير من العقارب الصفراء والسوداء مرصوص بحرفية ليشكل صورة عقرب كبير يتصدر صدر الغرفة، حث إسرافيل شعيبًا على الجلوس بعدما خلعا أحذيتهما أمام مدخل الغرفة، جلس شعيب من تحت الهيكل العقربي وإلى جواره الحقيبة مندهشًا من المكان وأطال النظر إلى عيني الأفعى التي لمعت بعامل الإضاءة القوية والتي شعر شعيب للحظات أنها وبطريقة ما ستُبعث فيها الحياة مرة أخرى وتتحرك ثائرة على سباتها الطويل، انفض شعيب من أفكاره التي لا تخلو من هلاوس وسأل إسرافيل الذي اقتعد النمرقة التي تواجهه بصوت خافت لا يكاد يسمع:

-هو احنا فين؟

- احنا دلوقتي في قرية اسمها بقبق .

فرد شعيب بطريقة تهكمية سائلًا:

- ودي فين بقى بقبق دي إن شاء الله، في مصر؟؟!

ضحك إسرافيل من سؤال شعيب لعلمه أن أغلبية المصريين على غير علم بوجود قرية بقبق على الخريطة المصرية وقال له والابتسامة ما زالت

مرسومة على وجهه:

-أيوه يا عم في مصر، بقبق دي قرية قبل السلوم بمسافة بسيطة بس ماحدش يعرف عنها حاجة علشان مالهاش أي نشاط مشهورة بيه، بقبق قرية فقيرة ومعظم أهلها غلابة يا عايشين على صيد من البحر يا إما المكسب اللي بيطلع لهم من طرح شجر التين والزيتون.

- طيب احنا إيه اللي يخلينا نبيت هنا النهاردة، يعني ماتحركناش ليه على طول على ليبيا؟!

- هو انت نازل اسكندرية يا شعيب ! دي ليبيا يا ريس، يعني هتتحرك مع مجموعة مش أقل من خمستاشر نفر.

- أنا كنت فاكر اننا هنوصل النهاردة على هناك.

- لا القصة مش بتمشي كدا، الطلعة مش سهلة علينا علشان كدا بنطلع طلعة كل أول شهر قمري، علشان القمر يكون عاتم ومانظهرش واحنا ماشيين في الجبل على ضوئه.

- يعني احنا هنقعد لحد امتى هنا؟؟

- احنا زعلناك في حاجة ولا أيه يا عم شعيب، أديك قاعد معانا يا أخي وكلها يوم يومين وهنتحرك.

- هو الطريق بياخد وقت قد أيه من هنا لليبيا؟

- هي ليلة وفي النهار اللي بعدها تبقى خرجت برا الحدود أو تبقى في ليبيا، المشوار مش طويل الطريق هو اللي صعب شوية.

صمت شعيب للحظات وسأل إسرافيل من بعدها:

- طيب أنا عاوز أنام، هنام هنا ولا فين؟

- لا يا شعيب نوم ايه إحنا لسا هنأكل لقمة سوا، الجماعة بيحضروا الأكل فوق أنا كلمتهم واحنا في الطريق، أنت كنت مقتول نوم ساعتها.

- أنا كلت في مطروح لقمة قفلت معدتي على الآخر.

- أنت شكلك بخيل يا شعيب، احنا اللي يدخل المكان ده لازم يأخذ الواجب بتاعه كامل ومكمل وبعدين أنت من طرف عبد المتجلي، وانت ماتعرفش هو عزيز عليا ازاي يا شعيب، اصبر دقيقة هطلع استعجلهم على الأكل.

- طيب هستناك.

خرج إسرافيل من الغرفة وعبر الممر وصعد السلم ليتوجه للطابق الأول، وصل إلى زوجته التي انشغلت في تجهيز مائدة العشاء داخل المطبخ وأنبأها في عجلة بوصول الضيف وحثها على إعداد الطعام سريعًا ومن ثم توجه للطابق الثاني الذي يسكنه أخوه سلومة، طرق إسرافيل الباب ففتح له سلومة فقال له إسرافيل في عجلة من أمره:

- شعيب زميل عبد المتجلي قاعد تحت، يلا علشان هو قاعد لوحده وقلت له هنتعشى سوا كلنا.

- انت عارف أن العمدة وصاني على الواد ده، اداني ورقة فيها اسمه وقال لي أن في حد تبعه موصي عليه جامد، وأنا كنت ناسي أصلًا أن زميل عبد المتجلي اسمه شعيب.

- غريبة يعني أن العمدة يكون عارف الواد ده، هيكون عارفه منين إذا كان في ناس من النجيلة نفسها ماتعرفش عن الراجل ده حاجة!! وبعدين هي الناس بتوصي على الناس في الهلاك، ما علينا دلوقتي يلا علشان أنا

سايبه لوحده في الاستراحة هستناك تحت.

- ماشي في ضهرك.

دلف إسرافيل إلى الغرفة حاملًا صينية مليئة بأصناف مختلفة من الطعام فوجد شعيبًا مستندًا برأسه إلى الجدار واعتدل في جلسته بمجرد شعوره بالحركة داخل المكان، على الأرض وضع إسرافيل الصينية المكتظة بالطعام ورفع الصينية النحاسية التي تحمل الدورق والأكواب ووضعها جانبًا وأحل محلها صينية الطعام على الطبلية، مع وصول سلومة إلى الغرفة اخترقت رائحة الطعام الزكية أنف شعيب، تصافح سلومة وشعيب في لحظة تعارف أجراها إسرافيل فتعجب شعيب من اسم سلومة كتعجبه للاسم عندما نطقه صديقه عبد المتجلي لأول مرة أمامه ومن ثم تحلق الثلاثة حول طبلية الطعام.

على الصينية وبشكل منظم وضعت زوجة إسرافيل طبقًا كبيرًا مليئًا بكمية من الأرز البني تتوسطها دجاجة مشوية وعلى الطبق رصت عددًا من العصافير المقلية في السمن بشكل دائري من حول الأرز، كانت الصينية تحمل صنوفًا مختلفة فكان عليها ثلاث سلطانيات من الشوربة وثلاثة طواجن من اللحم تتحلق من حول طبق الأرز الكبير.

شرع الثلاثة في تناول الطعام فأمسك إسرافيل بعصفور بائس في طريقه إلى الفناء في الأمعاء الغليظة فالتهمه دفعة واحدة ساحقًا عظامه بأسنانه الفتاكة، بدأ شعيب بطاجن اللحم فاغترف غرفة بملعقته سحب فيها بجوار قطعة اللحم الصغيرة قطعة من الترفاس اعتقد أنها بطاطس فتذوقها فشعر باختلاف مذاقها عن المذاق الطبيعي للبطاطس، لكنها ومع

ذلك كانت طيبة المذاق؛ فسأل موجهًا الكلام لسلومة:

- هي البطاطس دي طعمها غريب ليه؟

- دي مش بطاطس يا شعيب، ده ترفاس يا وحش.

- وإيه الترفاس ده بقى يا سلومة؟

- بص يا سيدنا الترفاس ده فطر بري بيطلع تحت الأرض في الجبل شبه حباية البطاطس الصغيرة بس مش نفس الطعم، بيطلع بعد موسم المطر والناس بتستناه من الموسم للموسم علشان بيشد الحيل ويقوي العصب وليه فوايد ياما، والكيلو منه معدي الست ميات.

- بس طعمه حلو تسلم إيد اللي عمل.

تحدث إسرافيل بدوره موضحًا لشعيب وهو يفسخ الفرخة بيده مبددًا واقع تلاحمها:

-عاوزك تدوق الدقانيش بقى يا شعيب علشان طِعْمة أوي.

- العصافير دي يعني؟

- لا الدقنوش غير العصفور؛ الدقنوش أطعم وألذ، امسك كُلْها بعضمها كدا ما تسبش فيها حاجة بالهنا عليك...

التقط شعيب الدقنوش من يد إسرافيل وأكلها على مراحل وكان في غاية من الاستمتاع بطعمها الرائع وعلم منهما أن الدقانيش طيور تهاجر من بلادها في موسم الشتاء فينصُب لها الصيادين الأفخاخ على أشجار التين اليابسة فيمسكونها بأعداد كبيرة، وأكل شعيب من بعدها لقيمات من لحم الدجاج وقطعًا من الترفاس حتى امتلأت معدته؛ فكف عن تناول الطعام وسألهما عن دورة المياه فتوجه إليها بعد أن أنبأه إسرافيل عن موقعها بجوار شجرة التوت الواقفة كالخفير في حوش المربوعة.

عاد شعيب إليهما من بعدها وقد غسل كفيه بالماء والصابون فوجدهما قد فرغا من تناول العشاء، فرفع إسرافيل الصينية وصعد بها إلى الطابق الذي يسكنه، وظل سلومة وشعيب يتجاذبان أطراف الحديث في أمور غير ذات قيمة.

نزل إليهما إسرافيل من جديد، طلب شعيب من إسرافيل أن يوجهه إلى المكان الذي سيبيت فيه ليلته لأن الإرهاق قد وصل به إلى مرحلة عاتية من التعب وأن الخمول الذي ضرب رأسه وجسده بفعل العشاء الدسم لا يقضي عليه سوى نومة مريحة؛ فأذعن إسرافيل لطلبه وقاده إلى الغرفة التي تلي غرفة الجلوس والتي تتوسط الممر وتركه وحيدًا في الغرفة وعاد لسلومة مرة أخرى.

جلس إسرافيل بجانب سلومة ليجده مطرقًا سارحًا في اللا شيء فسأله قاطعًا سلسال أفكاره:

-ما لك يا سلومة، بتفكر في أيه؟

- هموت واعرف يا إسرافيل العمدة طخارة عرف منين إني عملت شغل لنفسي، مش قادر أفهم هو عرف التفاصيل ازاي.

صمت إسرافيل للحظة وتابع الحديث قائلًا:

-هو عرف ازاي الفاجر ده؟

- هموت واعرف!

- يمكن حد سلمك من الجماعة اللي أنت اتعاملت معاهم في الجغبوب، ما انت عارف الراجل ده معارفه ملهاش حدود.

- مش عارف يا إسرافيل الراجل ده فُجره وصل لأبعد الحدود،

وعاوزني أجيب خمس عربيات مليانة سلاح كمان يومين، ومنين بقى من مساعد، يعني وادي عقرب، كأنه بيسلمني للحرس.

- طيب وهتعمل أيه؟

- هنجهم يا إسرافيل يعني هنعمل أيه، بس هنعمل حركة هنغفل بيها الحرس، هتمشي أنت بالعيال اللي داخلة ليبيا من وادي عقرب، وأرزوقة هياخد قطيع غنم ويطلع بيه الهضبة من أي خور يطلعه ودورية الحرس لو عدت تتلخم في الغنم أو العيال وأعدي أنا بالشغل.

- يعني إحنا كدا بنسلم العيال ديه كلها.

- ما تتحرق العيال يا إسرافيل، بقولك خمس عربيات يعني إعدام لو اتمسكت ولو الحرس لمحني وأنا هربت هيخرموني بالمتعدد ومش هيسموا عليا.

- طيب وشعيب زميل عبد المتجلي واللي العمدة طخارة موصيك عليه، دي كدا خيانة!

- لا بد من خيانة يا إسرافيل، لو ماضحتش بحاجة أنا اللي هروح فيها وبصراحة العيال دول اتجمعوا في وقتهم علشان أعرف ادخل بالشغل ده... العيال دول كام نفر؟

- هما اتناشر نفر، شعيب وعيل من حوش عيسى والباقي عيال برابرة .

- طيب جميل، هو أرزوقة فين؟

- كلمته من ساعة وانا في الطريق، هو أخد شوية عساكر من على الطريق برا وراح يوصلهم المعسكر اللي في قبر جابس.

- مش قلت له يبطل يدخل المشوار ده ويبعد عن سكة الجيش دي خالص؟!

- ما انت فاهم دماغ أرزوقة مابيفكرش في حاجة غير الفلوس.
- طيب اتصل بيه دلوقتي وشوفه وصل فين واستعجله.
- حاضر.

سحب إسرافيل هاتفه المحمول من جيب جلبابه واتصل بأرزوقة الذي استقرت سيارته بجوار سياراتَيْ إسرافيل وسلومة بالتزامن مع وقت المهاتفة التي بدأها إسرافيل، فدخل إليهما وأخذ ثلاثتهم يتشاورون بشأن الأحداث القادمة التي على وشك الحدوث ويقلبون المواضيع ويضعون الاحتمالات حتى تفرقوا، كلٌّ إلى وجهته، أرزوقة إلى منزله الذي يبعد عن المربوعة بثلاثة مبانٍ، وإسرافيل إلى الطابق الأول من المبنى، وسلومة إلى الطابق الذي يليه.

* * *

انقضى الليل إلا قليله، وظل شعيب مستيقظًا لا تعرف أجفانه طريقًا للغمض بعد أن أغلق إسرافيل باب الغرفة وتركه وحيدًا... الغرفة صغيرة، كئيبة، بنافذة مغلقة تطل على الممر، يوجد بداخلها سرير وحيد بمرتبة مهترئة وبطانية خشنة، إطارات سيارات تالفة مركونة بأحد جوانب الغرفة، ومعدات صيانة ميكانيكية موضوعة على سطح خوان خشبي بطريقة مهرجلة جعلت رائحة الغرفة تماثل رائحة ورش صيانة السيارات.

ظل شعيب ملتحفًا الغطاء الخشن اتقاءً للبرد على الرغم من تقذذه من ملمسه، وأصوات غريبة منبعثة من الخارج ازدادت معها حدة السهاد فلم يذق النوم في ليلته، والخواطر على الرغم من التعب والإرهاق ظلت تطارد مخيلته... الخوف من الوحدة، والخوف من المستقبل، الرحلة لن تكون بالسهولة التي توقعها وقصص الشيخ مجاهد عما يحدث في تلك الرحلات جعلت الحمل ثقيلًا بطريقة مربكة.

لم يحدث ما هو مفجع حتى الآن والأمور تمشي على خير ما يمكن أن تمشي عليه، ولكنه يشعر بالوحدة في غرفة برائحة عطنة تتلاشى فيها الآمال من نفسه إلى غير رجعة فازداد تشائمه وتحطم قلبه أشد تحطم.

تذكر أسرته من جديد والفتاة التي أحبها وما زالت بمكانها في ثنايا قلبه، أمانيه وأحلامه، سنين الدراسة والاجتهاد وأيام الظلم والإخفاقات... لم يكن يتوقع في يوم من الأيام أن الحياة ستضطره إلى خوض مثل هذا المعترك لكنها فعلت، الحياة غير منصفة وظلمها بَيّن، ولا تجود بخيرها إلا على الأشرار والفاسدين.

استمر شعيب على هذه الحالة، صريع ما بين ظلام الماضي واضطراب

الحاضر ومجهولية المستقبل، الماضي رحل ولا عودة له مجددًا، وآثاره ستظل عالقة في النفوس معذبة لها، والحاضر غريب لا يبشر بشيء وسلاسته تعد مخيفة، والمستقبل غامض وتوقعات أحداثه المسبقة تولد الخوف في النفوس، تحولت الأفكار في رأس شعيب إلى مناجاة؛ فأنشأ يقول في نفسه دون أن يصدر عنه كلمة واحدة وهو في غاية من الحزن والتداخل:

-يا ألله في أي بقعة من الأرض أنا ... لم حدث كل هذا من البداية؟ اين أنا يا ألله؟ لم لا يتغير الماضي وعلام كل هذا الشقاء؟ لماذا أنا بالتحديد؟ لقد فعلت ما بوسعي واجتهدت كل الاجتهاد لأنال مرادي ولم أنل شيئا مما تمنته نفسي، لقد نالت نفسي ما لا تستحقه من الحياة... ماذا عسايا أن أفعل بعد الآن، لقد تركت أسرتي ومَن أحب وتركت بلدي مهاجرًا إلى بلدٍ آخر، والخوف يلاحقني من وقتها وازداد الحمل بطريقة غريبة لمجرد أني ابتعدت عن واقعي ليلة واحدة. يا ألله كُف تلك الأفكار عن الانبعاث من مخيلتي وأرحني، وهب لي برحمتك سكينة من عندك.

استمر شعيب في مناجاته إلى أن اغرورقت عيناه وغاب من بعد دموعه في ثبات عميق لا يعرف ما سيحل بعده من أمور.

* * *

مدينة سيدي براني

قيادة المنطقة الغربية العسكرية

احتلت الشمس كبد السماء في صباح يوم مشرق لا تشوبه الغيوم وأرسلت أشعتها لتلطف من برودة الجو الذي اشتد سقيعه في الليلة الماضية. الهواء نقي بنسيم عليل تطيب له الجيوب الأنفية والصدور لخلوه من العوادم التي تنتشر في البقاع المكتظة بالمركبات.

علم الجمهورية يرفرف عاليًا ويبرق نسره الذهبي بعامل الأشعة المرسلة للأرض وإلى جواره علم القوات المسلحة وعلم المنطقة الغربية العسكرية وبيارق وأعلام الأفرع المختلفة يرفرفون جميعًا في آية من الانسجام.

الاضطراب يسود المكان فالحدث جلل والانضباط هو الصورة التي لا بديل لغيرها.

وقفت جوقة الموسيقى العسكرية أمام مبنى قاعة المؤتمرات الذي يحتل رقعة واسعة داخل القيادة واصطف جنود حرس الشرف بزيهم الرسمي حاملين الأسلحة التي سيأدون بها التحية للقائد العام، القادة مجتمعون، على رأسهم قائد المنطقة الغربية العسكرية يوجهون الأوامر ويشددون القبضة حتى يمر صباحهم دون تعليق أو أخطاء عسكرية.

ظهر الموكب من بعيد قادمًا من البوابة االرئيسية للقيادة وبدأت الجوقة العسكرية بعزف موسيقى الاستقبال، توقف الموكب أمام مدخل القاعة فنادى قائد حرس الشرف على جنوده بصوت نافذ تردد صداه في

أرجاء الفضاء المحيط بالمبنى المنيف قائلًا :

-حرس الشرف ... كتفًا سلاح.

تحرك الجنود انصياعًا لأوامر قائدهم من وضع جنبًا سلاح إلى وضع كتفًا سلاح بشكل منظم يكاد يرتقي إلى درجة مثالية من التناغم، فنادى عليهم مرة أخرى بأمر جديد أدخل الرهبة في قلوبهم:

-حرس الشرف... سلام القائد العام للقوات المسلحة، سلاااااام سلاح.

عزفت الجوقة موسيقى سلام القائد العام بالتزامن مع حركات الجنود المرتبة ووقف الجميع في وضع انتباه وأدى القائد العام التحية منفردًا وانتهى العزف ومراسم الاستقبال سريعًا فنادى قائد حرس الشرف على رجاله بنبرة نافذة مليئة بالثقة:

-حرس الشرف ... كتفًا سلاح.

دلف القائد العام إلى داخل القاعة فنادى منادٍ بالداخل هز نداؤه قلب القاعة وجدرانها قائلًا :

-ثاااااابت.

وقف كل الحضور الجالسين، المدنيون منهم والعسكريون، احترامًا وإجلالًا للقائد... كشيء متعارف عليه في الحياة العسكرية لا يجوز لشخص عسكري الحركة إلا بأمر من الرتبة التي تعلوه وإذا كان لأحد أمرٌ نافذٌ يعلو الجميع في ذلك الصباح فهو للقائد العام؛ لكونه أعلى رتبة داخل القاعة، فوقف العسكريون من الجنود وضباط الصف المعلمين والضباط على وضع الانتباه في انتظار إشارة من القائد بالجلوس.

توجه القائد إلى مجلسه على المنصة فجلس رئيس الأركان عن يمينه وجلس قائد المنطقة الغربية العسكرية عن يساره لكونه المستضيف، وأمر القائد الجميع بالجلوس بطريقة غاية في التهذيب فجلس الجميع.

جلس الحضور من شيوخ وعمد وعواقل القبائل العربية بمطروح داخل القاعة يستمعون لكلمة قائد المنطقة الغربية التي بدأ فيها بتحية القائد العام ورئيس الأركان موضحًا دورهما الصعب في قيادة القوات المسلحة التي هي الدرع الأول لحماية الدولة المصرية من يد الإرهاب الغاشم الذي يستبيح الدماء دون تفرقة، ودورهما في التصدي للأعداء دون رحمة... وتوجه من بعدها بالتحية للقبائل العربية التي تسكن مطروح والحماة الأساسيين للبوابة الغربية لمعرفتهم بدروب وصحاري المنطقة الغربية والمناطق التي يصعب على قوات حرس الحدود الوصول إليها لخطورتها ووعورة أراضيها، وأنهى كلمته بالإثناء على الجهود المبذولة من قبل قادة وضباط وصف وجنود المنطقة الغربية ودورهم المبذول في حماية الخطوط الحدودية وتأمين النقاط الحيوية بداخلها، ونقل الكلمة في النهاية للقائد العام وتوجه عائدًا إلى مجلسه مرة أخرى.

داخل القاعة وما بين الحاضرين من شيوخ وعمد، والمثقفين من شباب مطروح جلس العمدة طخارة بجوار أقرانه من مدينة الضبعة والنجيلة وسيدي براني ومرسى مطروح والسلوم وقرى ونجوع محافظة مطروح، جلس يستمع بآذانٍ صاغيةٍ لكلمة القائد العام الذي وضح في سياق حديثه أهمية محافظة مطروح لكونها بوابة مصر الغربية ودور القبائل العربية التي تسكنها في مساعدة قوات الأمن والجيش في تأمين

الحدود مع الجانب الليبي التي تهددها حرب الميلشيات العسكرية المحتدمة على الأراضي الليبية، ومنع العناصر الجهادية من اقتحام الحدود وتنفيذ أعمال إرهابية ضد البلاد... وضح القائد العام خطورة ما يحدث في الجانب الليبي على البلاد بعد الانفلات الأمني الذي تبع ثورة فبراير الليبية وفتح مخازن السلاح وانتشار تجارتها وتهريبها عن طريق الحدود بعد تفكك الدولة الليبية وعدم سيطرة الأمن الليبي على الحدود، ودعا أهالي مطروح للتكاتف مع القوات المسلحة لحماية الدولة والأراضي المصرية وطلب منهم المساعدة للحد من انتشار السلاح داخل بقاع "المحروسة" موضحًا أن الأسلحة والذخائر التي تتسلل عبر الحدود تتناقلها أيادي الجماعات الإرهابية إلى أن تصل لسيناء تتسبب في أعمال عنف وإرهاب على أراضي سيناء ويتم تهريب الكثير منها عبر الأنفاق إلى غزة.

اجتاحت حالة من الغضب نفس العمدة طخارة بالتزامن مع دعوة القائد العام لبدء مبادرة لتسليم السلاح غير المرخص الذي تم تهريبه عن طريق الحدود أو عن طريق منفذ السلوم البري في أوقات الانفلات الأمني، وشعر برغبة جامحة في الخروج من القاعة وعدم الاستماع لبقية الكلمات التي يلقيها الرجل على مسامع الحضور، الدعوة للمبادرة تعد كارثة بكل ما تحتويه الكلمة من معنى، ستشتد القبضة على المهربين وسيوافق الجمع من الشيوخ والعمد والعواقل على المبادرة التي دعا إليها الرجل دون تفكير في الأمر، ستتوقف الأعمال وسيصبح كل من له يد في هذه التجارة محل مطاردة من قبل قوات الجيش والشرطة، لن يبقى شيء كسابق عهده وسيحل الكساد على تلك التجارة فالقبضة وصلت إلى أوج قوتها والأوضاع تتدهور لغير الصالح.

استمرت مخيلة العمدة طخارة في استحضار التوقعات وبناء تصورات لما قد يحدث في المستقبل فاشتد عليه الغضب، وبدا واضحًا على ملامحه وأخذت أنفاسه تتسارع واضطرب أشد الاضطراب وأصبحت أفكاره مشوشة ولا يكاد يسمع كلمة من الكلمات التي يلقيها الرجل على الحضور واستفاق من بعد ذلك على صوت أحد أكبر مشايخ المحافظة وهو يصيح بصوت اهتزت له نفسه قائلًا:

-كلنا معاك يا قائد.

فوقعت الواقعة شديدة على نفسه وشعر بأن روحه تسحب منه كأنه يوم الحساب في الوقت الذي علا فيه صوت التصفيق داخل القاعة وهو في تيه من إحساسه، لا يدري ما إذا كان شعوره ناتجًا عن الصدمة التي سببتها كلمات الرجل أم أن مفعول الأفيون المخدر قد بلغ ذروتَه في رأسه وعلى جسده.

* * *

عراضة

منطقة عسكرية تقع على هضبة السلوم، يسكنها الجنود المصريون وكلاب الصحراء وبعض الزواحف والكثير من الأشباح.

انفرط الهزيع الأول من الليل وبقي قليله وانتشر الطل في الأجواء فابتلت بقطراته الرمال والصخور الناتئة التي تفترش الصحراء المترامية، السماء محجوبة عن الرؤية بفعل الطل ونباح كلاب صحراوية يخترق صمت الخلاء المظلم ويستحيل إلى عواء ذئاب من وقت لآخر.

سرية من سرايا قوات حرس الحدود تتمركز في إحدى النقاط الحدودية متربصة لأي محاولة من المهربين أو المتسللين لاختراق السلك الحدودي.

وقف خالد ضرغام أحد مقاتلي السرية داخل برج الحراسة موجهًا سلاحه الآلي في اتجاه السلك الذي يبعد مسافة عن السرية، استعان ضرغام على البرد المنتشر في الوجود بزيه العسكري الشتوي وببطانيتين كان قد تسلمهما في بداية مرحلة تجنيده، ووقف متيقظًا لتأمين القطاع المخصص له حراسته منتظرًا تسليم خفرته التي أوشكت على الانتهاء.

الطل يحجب الرؤية بطريقة تامة فترك ضرغام السلاح بجانبه واستند بذراعيه على نافذة البرج وأخذ يدقق البصر في الخلاء الواقع أمامه وشعر من بعدها بصوت أقدام تتحرك قادمة في اتجاه البرج فسحب سلاحه وتوجه إلى النافذة التي تطل على السرية ونادى بصوت عالٍ تردد صداه في الخلاء قائلًا:

-مين اللي ماشي هناك؟

- خلاص يا ضرغام أنا "صافي" مافيش حاجة.

- إيه اللي جابك بدري يا "صافي"؟

- قلت آجي أقعد أتكلم معاك شوية قبل ما استلم الخفرة.

- طيب اطلع تعالى.

صعد "صافي" سلالم برج الحراسة وجلس على أرضية البرج متدثرًا ببطانيتين كرفيقه خالد وتنهد تنهيدة عالية فسأله خالد بصوت هادئ قائلًا:

-ما لك يا صافي؟

- تعبت يا خالد وجبت أخري من الميري، الحياة هنا صعبة جدًّا.

- هو أنت لوحدك اللي تعبت يعني يا "صافي"، ما الناس كلها تعبانة وبعدين مافيش هنا ميري أصلا أومال الظباط والصف يعملوا إيه وهما حياتهم كلها كدا؟

- يا عم عارف إن الميري مش بيتطبق هنا زي باقي المناطق بس الجبل عيشته صعبة جدًّا وأنا جبت أخري والله يا ضرغام جبت أخري وتعبت.

- هانت يا صاحبي كلها خمس شهور والحكاية تخلص وربنا هيكرمنا ونشوف حياتنا في الملكي بقى، كل حاجة بتعدي وخلاص فات الكتير والله هانت أوي سيبها على الله.

- على الله يا أبو الدفع. هات السلاح يا عم وانزل نام، الذخيرة تمام؟

- تمام يا صديقي.

- صحيح يا خالد عدي على الظابط علام علشان عاوزك، بيقول هنطلع دورية بكرة نمشط السلك من هنا لحد المنفذ فوق.

- طيب يا عم مصلحة، أهو نتفسح شوية في الجبل بدل ما نفضل معششين هنا.

ضحك الصديقان من قلبيهما رغم قساوة الوضع وصعوبة التعايش في الخلاء ومرارة الحياة في عزلة عن العالم، وتحرك خالد فنزل سلالم البرج مودعًا صديقه ومشي في طريقه للسرية تداعب مخيلته الأفكار، "صافي" محق في كلامه؛ حياة الجبل في غاية الصعوبة، الحياة العسكرية نفسها صعبة تحتاج إلى نفوس قوية غير خانعة... كل شيء في العسكرية يختلف عن عالم الملكية، هنا نعتمد أكثر على أنفسنا فنكسر الاعتمادية على ما هو غيرنا، نجهز الطعام ونغسل الثياب وننظف بأنفسنا ونتعلم مع شمس كل يوم جديد شيئًا جديدًا... الحياة العادية لا تخلو من خبرات يومية لكن هنا كل شيء مختلف، الأحداث مختلفة والمواقف مختلفة... كل شيء هنا بالأمر لا مجال للتصرف القائم على الإرادة الذاتية وعلى الرغم من قساوة العيش في الإذعان للأوامر الصارمة إلا أن تلك الحياة تعلم الكثير الذي لا وجود له في الواقع الخارجي.

انفض خالد من أفكاره بعد أن قطع الطريق الفاصل ما بين البرج والسرية إلى أن وصل لمبيت قائد السرية فطرق على الباب طرقات خافتة ووقف منتظرًا الأمر بالدخول فاستجاب قائد السرية لطرقاته سائلًا:

- مين برا بيخبط؟

- العسكري خالد ضرغام يا فندم.

- تعالى يا ضرغام، ادخل.

فتح خالد باب المبيت ودخل مؤديًا التحية العسكرية كنوع من الانضباط فحيّاه الضابط علام بتحية مشاورًا بيده بطريقة لا تمت للتحية العسكرية بصلة وهو مقتعد سريره مرتديًا ملابس الراحة وقال له بصوت هادئ:

-تعالى اقعد يا ضرغام.

- تمام يا فندم.

صمت الضابط علام لبرهة بعد أن جلس ضرغام على أحد الكراسي الخشبية في إحدى زوايا المبيت المضاء بنور شمعة وسأله من بعد صمته:

-عامل أيه يا ضرغام؟

- تمام يا فندم الحمد لله بخير، الصافي قال لي إن حضرتك عاوزني.

- شوف يا ضرغام، قائد الكتيبة كلمني وبلغني أوامر جديدة من قائد القوات؛ إننا هنكثف الدوريات بتاعتنا على طول الخط، الفترة اللي جاية مش هتكون سهلة خالص يا ضرغام علشان تجارة السلاح والتهريبات بقت على ودنه والمتسللين بقوا يخرجوا من على السلك أكتر ما بتخرج الناس بطريقة شرعية.

- إحنا مش هنام كدا يا فندم.

ضحك الضابط علام وتابع قائلًا:

-إحنا من امتى واحنا بنام يا ضرغام، إحنا عايشين يا بني ننفذ الأوامر لحد لما أجلنا يجي واحنا نحمد ربناإننا أحسن من غيرنا علشان سيناء فيها حرب حقيقية، وانا لسّا واحد من دفعتي مستشهد هناك اتضرب بالغدر هو وكل السرية بتاعته في كمين بسبب الفُجر بتاع الإرهاب.

- الله يرحمه يا فندم ويدخله الجنة.

- إن شاء الله هيدخل الجنة يا ضرغام، الراجل سايب بيته ونازل يحمي بلده واتغدر بيه، لازم يدخل الجنة، ربنا اسمه العدل وهيدخله الجنة.

- إن شاء الله يا فندم، ربنا يصبر أهله.

- يا رب يا ضرغام ويصبرنا، المهم دلوقتي احنا هنبتدي نكشف الدوريات من بكرة هنفضل نلف في كل حتة باللاند (عربات اللاند روفر) والظابط سلطان هيجلنا من الكتيبة بعربية تانية دعم علشان نبدأ الشغل بقى من بكرة، كل اللي فات كوم يا ضرغام والجاي كوم تاني خالص ربنا معانا إن شاء الله.

- إن شاء الله يا فندم، هستأذنك أقوم أريح انا.

- ماشي يا بني قوم نام لك شوية علشان تلحق ترتاح، علشان مش هتريح بعد كدا.

أنهى الضابط علام كلامه ضاحكًا فضحك معه خالد من قلبه وأدى له التحية العسكرية وانصرف عنه وتوجه إلى سريره داخل العنبر فنام متعبًا ورأسه خالٍ تماما من أي شيء قد يعكر مزاجه.

* * *

مدينة النجيلة

جلس العمدة طخارة على صخرة من الصخور الصادة لمياه الأمواج التي تضرب الشاطئ، جلس مفكرًا، تضرب المياه طرف جلبابه ولفحات أشعة شمس الظهيرة تلفح بشرته البيضاء وتشربها حمرة قاسية وهالة سوداء احتلت ما تحت جفنيه من أثر بقائه مستيقظًا طوال الليل.

لم يشعر العمدة طخارة بجمال المشهد الذي يكتنف مجلسه؛ فأفكاره منعته من الاستمتاع بأي شيء من حوله... الأوضاع أصبحت غير واضحة وكل التخطيطات المستقبلية أضحت على وشك التقويض بسبب الشروط الموضوعة في المبادرة التي دعا إليها القائد العام في صباح اليوم السابق، القبائل والعشائر لن تتوانى عن التكاتف مع الجيش بسبب حبهم للدولة في المقام الأول وخوفًا على شبابهم في المقام الثاني من بطشة الأحكام العرفية التي لا تبقي ولا تزر في حالة وجود تهديدات حقيقية قد تمس سيادة الدولة من أي جانب أو طرف.

تحرك العمدة من مجلسه وتوجه إلى سيارته المركونة بالقرب من الشاطئ، فتح باب السيارة وسحب هاتفه المحمول من داخلها والعلبة الفضية الصغيرة التي يضع فيها مخدر الأفيون ويصحبها معه أينما ذهب، فتح العلبة الصغيرة وسحب منها قطعة كبيرة من الأفيون ودسها في فمه وانتاب جسده قشعريرة غريبة بسبب مرارة الكتلة المخدرة في فمه، ووضع العلبة داخل السيارة من جديد وقد اعتاد المرارة، وكر راجعًا إلى مجلسه على الصخرة مرة أخرى.

انتظر العمدة طخارة حتى تذوب الكتلة الأفيونية في فمه، وبصره شاردٌ

لا يصيب شيئًا بمقلتيه فرفع هاتفه وأخذ يقلب في سجل الهاتف إلى أن وصل إلى اسم سلومة فضغط على مفتاح الاتصال وانتظر حتى يجيب الطرف الآخر فلم يجِبْه أحد فقال:

-الله يلعنك يا سلومة انت كمان، هو أنا ناقص قرفك؛ ما كفاية الفرمة اللي أنا فيها، أنت قاعد ولا داري بحاجة وانا دماغي مفرومة من نهار امبارح لا شوفت نوم ولا راحة.

حاول العمدة الاتصال مرة أخرى بسلومة فلم يجد ردًّا لاتصاله مرة أخرى؛ فاستشاط غضبًا وقبض على الهاتف قبضة غليظة وكاد للحظة جنونية أن يدفعه إلى الصخور الصلبة ليتهشم قطعًا، لكنه انصرف عن تلك الفكرة لاحتياجه الشديد للهاتف، فتحرك في اتجاه السيارة وكان في أوج غضبه وقتها وركبها والجنون يحتل أفكاره كلها.

تحرك بالسيارة وتوجه إلى الفيلا الخاصة به، المسورة بمزرعة التين اليابسة أغصانها التي فرضت كآبتها على المكان، دلف إلى الفيلا بعد أن فتح له خادمه الهزيل فنحاه عن طريقه وتوجه إلى خزينة الملابس القائمة في غرفة نومه فاستبدل جلبابه بجلباب آخر نظيف وعاد خارجًا من باب الفيلا والغضب يتطاير من عينه وهو يدس جواز سفره في جيب جلبابه.

ركب السيارة مرة أخرى وقطع المسافة إلى خارج حدود مزرعته بسرعة جنونية جعلت حبات الرمال التي تفترش المدق المضروب في منتصفها تتطاير متبعثرة وتشكل سحابة من الغبار في الأجواء.

توجه العمدة إلى طريق السلوم - مطروح الساحلي- متخذًا الاتجاه المؤدي للسلوم وأطلق العنان لمغير السرعة الأتوماتيكي فتحركت العجلات

على الطريق الإسفلتي بسرعة جنونية دون اعتبار لأي طارئ قد يحدث في الطريق فالإبل والأغنام لا تكف عن عبور الطريق دون رقيب لكنه لم يأبه لأي شيء على الإطلاق، رفع هاتفه وحاول الاتصال بسلومة من جديد وشغل مكبر الصوت فرد عليه سلومة من الطرف الآخر فصرخ العمدة طخارة على مسمعه قائلًا :

-أنت مش بترد ليه يا جدع انت؛ هما مش عاملين المحمول ده علشان لما يكون في حاجة مهمة نتصل عليه؟

فأجاب سلومة بنبرة مليئة بالنعاس والبرود:

-لا مؤاخذة يا عمدة كنت نايم معلش.

- يعني أيه نايم لحد بعد الضهر يا سلومة، ولو نايم ماتردش ليه على التليفون لما كلمتك مرتين؟

- يا عمدة كنت نايم ماسمعتش الرنة، المفروض أعمل أيه !!

- طيب يا سلومة اصحى جهز حالك علشان هتتحرك على "مساعد" دلوقتي وهتخرج من منفذ السلوم، الكلام كله اتغير من نهار امبارح وعمومًا أنا في الطريق جايلك.

- أنا مش فاهم حاجة يا عمدة؛ إزاي الميعاد كان بكرة ونتحرك النهاردة، ومنين بتقولي هدخل من وادي عقرب ودلوقتي بتقولي هطلع على مساعد من المنفذ أنا مش فاهم حاجة كدا خالص!

- مش لازم تفهم يا سلومة، قوم جهز نفسك دلوقتي وانا جايلك في الطريق وهفهمك كل حاجة لما اوصل، سلام.

- سلام يا عمدة.

أنهى العمدة طخارة المكالمة وضغط على دواسة الوقود فاندفعت السيارة بقوة غاشمة إلى أن وصل عداد السرعة إلى ما قبل نهايته، وكان زجاج السيارة مفتوحًا فأغلقه حتي لا يزعجه وقع ضربات الهواء الشديد بزجاج وجسد السيارة من الداخل.

بالسرعة التي اجتاز بها العمدة طخارة الطريق لم تكتمل ساعة واحدة حتى وصل إلى قرية "بقبق" فدلف إلى قلب القرية إلى أن عبر البنايات القائمة بداخلها واستقر بالسيارة بالقرب من بوابة المربوعة التي يسكنها سلومة، ترجل من السيارة ورفع هاتفه متصلًا بسلومة ودلف من البوابة المفتوحة وأنبأ سلومة أنه قد وصل إلى المربوعة.

نزل سلومة مسرعًا على سلالم البناية إلى أن وصل إلى غرفة الجلوس فوجد العمدة طخارة مقتعدًا إحدى النمارق في مواجهة الباب فأشار له العمدة بالجلوس كأنه المستضيف في منزله فجلس سلومة وسأله بصوت مليء بالتوتر:

-خير يا عمدة أيه اللي حصل؟

- مش خير خالص يا سلومة الدنيا كلها بتتلغبط.

ازداد توتر سلومة فقال:

- إزاي يعني مش فاهم يا عمدة؟

العمدة ببرود:

- ما انت نايم على ودانك مش داري بأي حاجة.

رد سلومة وقد فرغ صبره قائلًا:

- أنا كدا اتوترت يا عمدة طمني الله يرضى عليك!

- وزير الدفاع مابينمش وشغال مش مبطل شغل.

فسأل سلومة مستزيدًا من كلمات العمدة:

- عمل أيه يعني مش فاهم، في حاجة حصلت تخصنا؟

- امبارح كان عامل مؤتمر في سيدي براني.

- طيب دا يُخصنا في أيه؟ إحنا ما لنا ومال الكلام ده؟

أجاب العمدة وقد بدأت ملامح وجهه بالتغير:

- المؤتمر ده هيخرب بيوتنا أو اعتبره خرب بيوتنا، الراجل عاوز القبائل تسلم السلاح اللي مش مترخص وعامل مبادرة علشان الناس تسلم السلاح وعملهم شوية ضمانات ومقابلات للتسليم.

اجتاحت صدمة الخبر نفس سلومة فقال متأثرًا بالصدمة:

- يا نهار أسود دي خربت كدا، الناس كلها هتقف في صفه طالما التسليم فيه مصلحة ليهم.

فنطق العمدة بدوره مؤكدًا على كلام سلومة فقال:

- أسود بس! دا أسود ومطين علينا كلنا..

صمت سلومة لدقيقة وعاد من بعدها متسائلًا:

- طيب والطلعة يا عمدة اللي المفروض نطلعها لزمتها أيه دلوقتي وكل اللي كان شغال هيبطل يشتغل؟

- إحنا مالناش دعوة بحد، إحنا هنتحرك دلوقتي نطلع على مساعد ومن هناك هنحمل الشغل وندخل من وادي عقرب والشغل يكون بالنهار بكرة عندي في النجيلة.

- نتحرك؟؟!

- آه نتحرك يا سلومة أنا جاي معاك أنت فاكر أيه؟

- بس ده ماكنش الاتفاق ما بينا يا عمدة، الكلام كدا اختلف.

- طيب ما يختلف فين المشكلة؟

- ما كدا كل الترتيبات اللي أنا حاططها هتتغير.

انتابت العمدة موجة من موجات الغرور فرد متهكمًا على كلمات سلومة:

- أنا اللي برتب كل حاجة وانا اللي أقول نعمل أيه ومانعملش أيه، ما لك يا سلومة، أنت عندك مشاكل؟

ظل سلومة للحظات في حيرة ولكنه نطق بما يعتري في نفسه قائلًا:

- ما هو بصراحة يا عمدة الكلام ده ما ينفعش.

غضب العمدة بعد تجرؤ سلومة في إبداء رأيه فلا يصح – بالنسبة للعمدة – لأحد أن يخالفه الرأي؛ فرد بتوترٍ ظاهرٍ وقال:

- مافيش حاجة اسمها ما ينفعش يا سلومة كل حاجة هتنفع، لسا في فرصة للتسليم يعني معانا وقت نخلص الشغل براحتنا.

- بس كدا يا عمدة إحنا بنتحرك وخلاص من غير ما نبقى ماشين على أساس واضح!

- كل حاجة هتمشي زي ما كانت ماشية، الفرق إن إحنا هنقدم في الوقت ونتحرك دلوقتي، وإسرافيل وأرزوقة هيتحركوا بليل على ميعاد دخلتنا من وادي عقرب.

- طيب يا عمدة احنا ممكن نصبر فترة لحد لما الدنيا تهدا شوية وبعد كدا نشوف هنعمل أيه، العجلة مش حلوة في شغلتنا دي، مش عاوزين نغلط غلطة نرجع نندم عليها في الآخر.

- انسى الكلام ده، إحنا هنتحرك حالًا على مساعد، وإسرافيل هيتحرك مع العيال اللي هتهاجر بليل على الكمين القديم ويطلع الهضبة من الخور ويخدها من ورا وحدات الجيش على وادي عقرب وكدا كدا القمر عاتم ماحدش هيلمحهم، وأرزوقة هيمشي بالغنم ويطلع الهضبة من أي مكان ولو حد لمحه على الهضبة مش هيتكلم معاه علشان الهضبة مليانة غنم وجمال. قوم أنت جهز نفسك وهات جواز سفرك معاك علشان نختمه وبلغ إسرافيل علشان يبقى جاهز يتحرك من هنا بليل، ويبلغ أرزوقة بالكلام ده علشان يتحرك قبل مِنّه بساعتين.

- حاضر يا عمدة.

تحرك سلومة من أمام المربوعة بسيارته التويتا الدفع الرباعي وإلى جواره العمدة طخارة، خرج من القرية واتخذ وجهته في الطريق الساحلي الدولي إلى أن وصلا إلى مكتب المخابرات القائم في مدينة السلوم فدلفا إلى المكتب فختم لهما المسئول المختص ختم الموافقة على الخروج عن طريق منفذ السلوم ونالا مرادهما وتحركا مرة أخرى بالسيارة في نفس الطريق حتى وصلا إلى أعلى هضبة السلوم قاطعين الطريق الثعباني المؤدي إلى أعلاها واستكملا الطريق إلى أن وصلا إلى بوابة السلوم فأشهرا جوازهما لرجال الأمن -القائمين على تأمين المنفذ- من الشرطة والجيش حتى عبرا من بوابة السلوم ومن ثم بوابة مساعد الليبية وأعادا الكرة مع الأمن الليبي إلى أن تخطت بهما السيارة الحدود فقطعا مسافة صغيرة على الطريق ودلفا إلى الصحراء من بعدها قبل الوصول إلى مدينة مساعد التي ظهرت على مسافة قريبة منهما كانها مهجورة غير معمرة بالبشر في وضح النهار.

مدينة السلوم

الساعة الثامنة مساءً

أسدل الليل ستائره فارضًا كآبته على الوجود فتحرك أرزوقة في الظلام وحيدًا يتبعه حماره الذكي ومن ورائه قطيع من الأغنام مكون من مائة خمسين رأسًا بعد أن أخرجهم من مزرعة عمه الموجودة بالقرب من بوابة أسفل هضبة السلوم، القائم على تأمينها أفراد من وحدات الجيش الساكنة أعلى الهضبة.

قطع أرزوقة المسافة التي تفصل الطريق عن أول تجمع صخري للهضبة في هدوء دون أن يشعر به أحدٌ من العالمين... بدأ بصعود منحدرات الخور بأقدام ثابتة وهو يهش على الغنم حتى لا تَتُوه منه في غياهب العتمة، اشتدت صعوبة التضاريس وثنايا الصخور وانحرفاتها مع تقدم أرزوقة إلى الأعلى واشتدت عليه مقاومة الجاذبية الأرضية فامتطى ظهر الحمار التابع له وجعل القطيع من أمامه، غير منتبه لأي رأس تتسلل خارجة عن الجمع المُساق للأعلى فوصل إلى أعلى نقطة في الهضبة والتي ترتفع عن سطح البحر بمائتي متر بعد أن اجتاز المنحدرات الوعرة والثنايا المظلمة للخور فيما يتخطى ساعة من الزمن، فتسلل مبتعدًا عن الوحدات العسكرية المنتشرة على سطح الهضبة وتوغل في قلب الصحراء الشاسعة حتى وصل إلى أول نقطة من مدق وادي عقرب فظهر إلى ناظريه في البعيد منفذ السلوم البري كمدينة ساحرة تتلألأ أضواؤها وهي محاطة بالظلام تحت سماء مترعة بالنجوم الساهرة وقمر عاتم لا وجود له.

وقف العمدة طخارة إلى جوار سلومة في ظلام الصحراء الواقعة جنوب مدينة مساعد الليبية يتابعان صناديق الأسلحة والذخائر وهي تُحمل على صناديق عربات اللاند روفر، أنواع من الأسلحة المختلفة، بنادق آلية ورشاشات خفيفة ورشاشات نصف بوصة ومدافع جرينوف وذخائر مختلفة.

ظل العمدة طخارة يتابع عملية التحميل وهو سعيد ومتحمس في حين وقف سلومة مضطربًا خائفًا من اقتراب ميعاد التنفيذ، الشُّحنة كبيرة تفوق كل الصفقات التى تمت سابقًا؛ فشعر سلومة ولأول مرة بخوف لم يكن يعرف معناه فيما مضى.

تمت عملية التحميل سريعًا فركب العمدة طخارة إلى جوار سلومة ساحبًا في يده مدفع جرينوف وشرائط من الذخيرة الخاصة به ووضعها إلى جواره هو وسلومة تحسبًا لأي هجوم قد يقع في طريقهما للعودة فتحركا بالسيارة وتبعتهما الأربع سيارات الأخرى يقودها عناصر من تابعيهم في الأراضي الليبية في طريقهم لتخطي الحدود من صحراء ليبيا إلى صحراء هضبة السلوم عن طريق فجوة في السلك الحدودي.

* * *

منطقة عراضة

دخل خالد ضرغام إلى العنبر الخاص بالجنود داخل السرية وهو يمسك في يده المعطف الواقي من المطر، حث خالد زميله الصافي على الإسراع من تجهيز نفسه لأن موعد تحرك الدورية قد حان، جهز الصافي سلاحه الذي تسلمه وارتدى شدته وحمل بيده الخوذة الحديدية وواقي المطر وخرج إلى جانب خالد فمشيا إلى أن وصلا لعربة اللاند روفر التي انتظر بداخلها الضابط علام وثلاثة من زملائهما يجلسون في صندوقها، صعد الصافي ومن بعده خالد إلى صندوق العربة بأمر من قائدهما فشرع خالد في تجهيز السلاح المثبت على ظهر العربة فملأ الرشاش الخفيف بالطلقات، وسحب ذراع التعمير وتركه على وضع إطلاق النار وأغلق سقاطة الأمان إلى الحين الذي سيستخدم فيه السلاح.

ارتدى الصافي المعطف الواقي من المطر وأحكم إغلاقه ليتقي البرد وتحسبًا لسقوط أي أمطار وجلس بجانب زملائه الثلاثة، اهتدى خالد ضرغام إلى ما فعل الصافي فارتدى معطفه مثلما فعل الصافي وأحكم إغلاقه.

تحركت السيارة بأمر من قائد المركبة فقطع السائق جزءا من الطريق إلى أن التقوا بعربة أخرى تابعة للحرس كانت بانتظارهم في ظلام الطريق، تحركت العربة التي يعتلي صندوقها خالد ضرغام والصافي في المقدمة ومن ورائها العربة التي وقفت تنتظرهم، تابع خالد ورفيقه الصافي الطريق في أثناء سير العربة حتى حادت بهم عن الطريق الإسفلتي لتسير على الرمال في قلب الصحراء التي تزيد فيها احتمالات التيه أثناء السير بداخلها عن

احتمالات الرجوع منها في أوقات الليل، توغلت العربتان بسرعة بسيطة في قلب الصحراء المترامية لمدة وظل الرفيقان يمشطا الصحراء المنتشرة من أمامهما بأعينهما في أثناء المسير حتى لمحا في قبة السماء المرفوعة من فوقهما شهابًا ثاقبًا يخترق السماء مبددًا حياة شيطان حاول بحماقة أن يطلع على أسرار السماء، وفي نقطة بعيدة عنهما ومن بعد الظاهرة التي حدثت من فوقهما لمح خالد ضرغام كشاف إضاءة ليلية لسيارة تتحرك في ظلام الصحراء فدقق بصره ليجد سيارات أخرى تتحرك بجانبها فمال بجسده في اتجاه نافذة العربة ليتحدث مع الضابط علام الذي أمر السائق بالتوقف عندما سمع نداء خالد ضرغام.

قفز خالد من صندوق العربة على الأرض وأشار بيده للضابط علام في اتجاه السيارات التى رآها تتحرك في الصحراء فأمره الضابط بالعودة إلى موقعه وأن يعد نفسه لأي اشتباك وأن ينوه على زملائه باتخاذ الحذر والتيقظ لما هو آتٍ بعد أن أمره بأن يُبلغ قائد العربة التي تتبعهم أنهم على وشك مداهمة السيارات المتسللة.

صعد خالد إلى صندوق العربة من جديد وهيأ نفسه للمداهمة بنفس مليئة بالشجاعة وروح لا تخشى الموت .

* * *

مدينة السلوم

تزين الليل بزي الظلام في غياب القمر وانتشرت النجوم غير واضحة من تلاحم السحب المترعة بمياه الأمطار واشتدت البرودة في الجو مع قوة الرياح المنتشرة في خلاء مدينة السلوم.

تحرك إسرافيل كدليل يتقدم جماعة المهاجرين بجوار كمين التفتيش القديم التابع لقوات الجيش والشرطة وهو عبارة عن نقطة مظلمة دائبة في الظلام من أمام الساحل المخيف، قطع إسرافيل الطريق من موقع الكمين إلى أول الخور المضروب بعامل الطبيعة في قلب هضبة السلوم يتبعه شعيب وزميل رحلته الجديد عسران القادم من بلدة حوش عيسى التي تحتل بقعة على خريطة محافظة البحيرة ومن ورائهما جماعة من عشرة أفراد من دول إفريقية ارتحلوا عن بلادهم للهجرة عبر الأراضي الليبية، توقف إسرافيل عند مطلع الخور وأمر الجميع بالتخلي عن حقائب ملابسهم حتى لا ترهقهم في الصعود وارتداء ما يفي بغرض صد الصقيع، وعاد من جديد ليبدأ في صعود ثنايا الخور المظلمة.

تعد هضبة السلوم منطقة جبلية منيفة تحتل الرقعة الأوسع من مساحة مدينة السلوم على الخريطة، أرضها قاسية وتضاريسها موحشة وتحمل في ثناياها مخرات لمياه الأمطار وأخوار مخيفة شديدة الانحدار وتكشف أعلى نقطة فيها مياه البحر المتوسط إلى ما يمتد به البصر.

على مر العصور كانت هضبة السلوم هي بوابة مصر الغربية إلى ليبيا وشهدت أرضها العديد من الأحداث التاريخية حيث استخدمها المسلمون في فتوحاتهم لبلاد شمال أفريقيا وجعلوا منها مخازن للمؤن والعتاد، وكانت

أرض المدد للمناضل الليبي عمر المختار في معاركه الضارية ضد المستعمر الإيطالي في إبان الحرب العالمية الأولى والتي تكبد فيها المهيمن الإيطالي خسائر فادحة من المقاومة السنوسية بقيادة المختار.

في نهاية الربع الثاني من القرن العشرين دارت على أرض السلوم معركة شديدة فيما بين دول المحور والحلفاء انتزعت من بعدها قوات المحور الأرض من الحلفاء فتقهقروا إلى مدينة العلمين وكانت هذه المعركة بمثابة نقطة تحولية في الحرب العالمية الثانية لصالح قوات المحور ضد الإنجليز ولكن تحول الأمر ضد دول المحور فيما بعد لنقص الإمدادات الهتلرية والموسولينية لحملة شمال إفريقيا بقيادة أرفين رومل (ثعلب الصحراء) مما أعاق سير التقدم نحو تحقيق الهدف من الحملة وهو الهينمة على المجرى الملاحي لقناة السويس لمنع الإمدادات القادمة للإنجليز من مستعمرة الهند الإنجليزية وتوقف التقدم نهائيًا بعد معركة العلمين الأولى ومعركة علم حلفا وتقوض حلم الحملة تمامًا بعد معركة العلمين الثانية لتنقلب كفة الميزان في صالح الحلفاء وتتغير من بعدها موازين الحرب العالمية الثانية بشكل نهائي.

كانت الهضبة على ذلك الحال من الأحداث حتى هيمنت عليها قبضة رجال الأمن المصرية ولكنها ومع ذلك تواجه العديد من المخاطر عن طريق المهربين وغيرهم من محلي الفساد في الأرض.

مشى شعيب بجوار عسران في الظلام بعدما تخلصا من حقائبهما، مشيا يتبعان خطى إسرافيل الذي يعد ماهرًا في تخطي الصخور الناتئة في الخور بحكم خبرته وبدأ بالصعود من وراء إسرافيل ومن ورائهما جمع

الأفارقة فكسر شعيب حاجز الصمت متهربًا من الخوف الذي يملؤه فسأل عسران بصوت مليء بالاضطراب:

-إنت قررت تسافر ليه يا عسران، إيه اللي يخليك تسيب بلدك وتحاول تهرب مع إن العيشة عندكم تعتبر سهلة وممكن الدنيا تمشي فيها بأقل حاجة.

تنهد عسران وانتظر حتى يتخطى صخرة عالية واجهته وأجاب.

- والله يا شعيب ياخويا مش مرتاح والدنيا صعبة في كل حتة، مش شرط أكون هربان بسبب ضيق الرزق بالعكس إحنا عايشين عيشة مرتاحة وأرضنا موفرة لنا كل حاجة بس أنا مش مرتاح.

- يعني تسيب أرضك وانت كل حاجة متوفرة لك علشان تهرب لحاجة أنت مش عارف نهايتها أيه، وتقول لي راحة هو في راحة أصلًا في الدنيا؟!!

- أنا عارف إن مافيش راحة في الدنيا بس أنت مش فاهم، الراحة مش شرط تكون في أرض أنت مالكها ولا الأكل ولا الشرب ولا كل الكلام ده، أنا نفسيًّا مش مرتاح، مش مرتاح في المكان ده، في حاجة تعباني، حاجة أكبر من إني أكمل في المكان ده.

- إيه هي الحاجة، مش فاهمك؟

- ومش هتفهم، عمرك ما هتفهم علشان ده إحساس مش فكرة، الإحساس بيتحس يا شعيب ما بيتفهمش.

- أنت فيلسوف بقى يا عم عسران!

- مش فيلسوف يا عم أنا فلاح بس متعلم وواعي للدنيا.

نطق عسران كلماته وتعسر بصخرة ناتئة تعوق المدق المضروب

بالخور فأمسك شعيب بيده وسحبه للأعلى وقال له بأنفاس تعالت من المجهود ساخرًا.

-حاسب بس تقع مننا يا عم الواعي.

ضحك عسران وتابع قائلًا:

-أكمل لك الكلام يا عم شعيب، الحكاية إن أنا بهرب من أجل الهروب، بهرب علشان حياتي مش عجباني، الحياة مش أكل وشرب وشغل ونوم، الحياة أكبر من كدا بكتير، دا غير إن في حاجات في وسط الحياة اللي أنا عايشها أنا مش قابل بيها، كل واحد ليه سبب بيخليه ييأس من حياته علشان كدا بيفكر في الهرب. زيك بالظبط يا شعيب أنت أكيد في سبب لهروبك والسبب ده هو اليأس، مش مهم بقى اليأس ده بسبب أيه المهم إنه يأس وخلاص. عارف يا شعيب في راحتين في الدنيا واحدة منهم اليأس، علشان أول لما يحضر بتبطل تجري ورا أي حاجة.

صمت عسران وظلا يتابعان تقدمهما حتى قابلا إسرافيل في طريقهما عند صخرة اقتعدها ليستريح فجلسا يبتعدان عنه بضعة أمتار وانتشر من حولهما جماعة الأفارقة فسأل شعيب عسران بأنفاس مضطربة وقد بدأت بالاتزان:

-إيه الراحة التانية اللي غير اليأس اللي كنت تقصدها في كلامك يا عسران؟

- الموت، الموت يا شعيب.

شعيب في تعجب:

-الموت!

- آه الموت يا شعيب مستغرب ليه؟

- هو الموت راحة ازاي وهو بيلغي صفة الحياة أصلًا؟

- الموت يا شعيب هو آخر شعور بالراحة في الحياة بس علشان تجرب الشعور ده لازم تكون جاهز علشان الموضوع مش سهل.

- أنا مش مقتنع بكلامك، أنت كدا بتقول كلام وخلاص.

- ومش هتقتنع يا شعيب، زي ما مافيش حد هيقتنع بأن اليأس راحة!

- يا بني اللي بتقوله ده كفر، كفر بمعنى الكلمة... اليأس كفر يا عسران والموت راحة من الحياة مش في الحياة وبيبقى راحة في حالة واحدة بس لو عملك صالح.

- ما تكفرش حد يا عم شعيب علشان ده مش صح، اشتري الكلام وخد منه اللي يعجبك واللي مش على هواك أو بيخالف مُعتقَداتك أو مفهومك كأنك ماسمعتوش من الأساس، وبعدين لو اليأس كفر أنت أيه اللي خلاك تيأس يعني أنت كدا كافر؟

- أنا مايأستش، أنا بسعى في طريق جديد علشان الطرق اللي فاتت مش سكتي ماليش نصيب فيها.

- أنت كدا بتبرر يأسك، إنت رايح تعدي الحدود بطريقة مش مشروعة بالهروب يعني طريق غلط وسكة مش صح، أنت يئست من الصح والمشروع وجبت آخره فمشيت في الغلط.

- أنت مش عارف أيه اللي اضطرني أعمل كدا.

- ما أنت مش عارف أنا أيه اللي اضطرني أعمل كدا، بس أنا حقيقي مع نفسي مش بخدعها، أنا عارف إن اللي حركني في اتجاه الطريق ده هو

اليأس. أنت بس بتكابر.

- هو إحنا بنهون على بعض الطريق يا عسران ولا بنزود الخنقة والضيق على بعض؟!

- إحنا بنتكلم يا شعيب بنطلع المكتوم جوانا، الكلام اللي جوانا هو اللي مسبب الخنقة والضيق، ممكن تتخنق في الوقت اللي بتخرج فيه الكلام علشان هو ده اللي تاعبك بس صدقني لما بيخرج من جوا نفسك بترتاح، على الأقل حدته بتخف.

- معاك حق يا عسران، لازم الواحد يخرج اللي جواه علشان الكتمة دي هي اللي بتقهر قلب الواحد.

- أنت عارف يا شعيب الحكاية كلها.

أرسلت السماء ألسنة البرق فأظهرت وحشة الخور لأنظار المرتحلين وجعجع الرعد مسبحًا من بعدها فأرسل في القلوب رهبة خفية صمت على أثرها عسران قاطعًا حديثه دون تكملة، تحرك إسرافيل من موضعه وأمر الجميع بالتحرك في عجالة حتى لا يصيبهم المطر الذي أوشك على الهطول وحذرهم من السيول التي تضرب السلوم وخطورتها في قلب الخور فهو مصب لما يسقط من مياه على الهضبة ونبههم بأن يتخذوا الحيطة أثناء الصعود وأكد عليهم بالتشبث الجيد بالصخور حتى لا تتعسر قدم أحدهم فيسقط إلى مصرعه.

تحرك الجمع بعدما أمرهم إسرافيل بمواصلة الحركة وما لبثوا يصعدون حتى بدأت الأمطار تنهمر من السماء على رؤوسهم، الأمطار قوية تصحبها رياح شديدة تكاد تهتز لها الأبدان فأصبح الجميع في غاية من

الاضطراب فما كان من إسرافيل إلا أنه حث الجميع على الاستمرار في الصعود حتى ظهرت لهم فجوة مجوفة كبيرة أشبه بكهف محفور في قلب الهضبة قد يقيهم شر الأمطار ولكنه إلى يسار المدق الممهد والوصول إليه محفوف بمخاطر صعبة، اتجه إسرافيل ناحية الفجوة حتى وصل إليها بصعوبة وتبعه عسران فكان أول الواصلين إليها من بعد إسرافيل، تعسر شعيب في الطريق إليها وكاد يسقط في هوة الخور بسبب الأمطار التي جعلت الصخور ملساء ناعمة لا تستطيع الأقدام الثبات عليها إلا بحذر شديد، تمسك أحد المرتحلين الأفارقة بملابس شعيب وساعده آخر حتى تخطى الجمع واستقروا كاملين مستظلين من الأمطار داخل الفجوة.

مر وقت غير قصير على الجماعة داخل الفجوة التي تشبه الكهف في ظلمته وما زالت الأمطار على شدتها بل ازدادت قوة عن قوتها فلم يجد إسرافيل بُدًّا من مواصلة المسير حتى لا يبيتون ليلتهم في هذا المكان وتفسد الخطة الموضوعة ويفسد كل شيء فتحرك وأمر من معه بالتحرك فتخطى الطريق سالمًا ومن بعده شعيب وتبعهما جماعة الأفارقة نفرا تلو الآخر مع أضواء البرق التي أرسلتها السحب، ما لبث عسران أن يضع قدمه على أول الطريق غير الممهد من الفجوة إلى المدق حتى جعجع الرعد بهزيم اهتزت له القلوب فسقط متمسكًا بصخرة لثانية واحدة أفلتته من بعهدها مياه الأمطار وسقط وصوت صرخته يدوي في أرجاء الخور مُقطعًا قلوب المرتحلين عامة وقلب شعيب خاصة.

لم يقدر شعيب على تحمل الصدمة فحاول النزول فمنعه إسرافيل بالقوة أثناء سقوط عسران وارتطام جسده بقوى ساحقة بالصخور الناتئة

في الخور فقال له شعيب بعصبية جنونية جعلت صوته يدوي في الخلاء

-ما تسبني أنزل اشوفه يا عم انت، أنت ما عندكش قلب؟!

فصدح إسرافيل بصوت عالٍ من العصبية والتوتر:

-مش هتنزل يا شعيب، لو نزلت هتقع زيك زيه، وبطل جنان علشان أنت مش نازل على سلالم.

- يا عم ما لكش دعوة بيا أنا هعرف انزل، حاسب ما تمسكنيش كدا.

دفع شعيب إسرافيل بقوة جسده فتخلص من قبضته ونحاه عن طريقه وهم بالنزول إلا أن إسرافيل قفز عليه بثقل جسده فثبته ليحول دون نزوله وقد فعل وقال له بنبرة مليئة بالاضطراب والرهبة جعلت صوته خافتًا:

-يا شعيب، عسران لو نجا من الوقعة والخباطات دي كلها مش هينجى من الكلاب والديابة اللي تحت بعد ما ريحة دمه تفوح وتوصل لهم، ولو في حاجة بقيت منه بعد نهش الديابة والكلاب الطير الجارح مش هيخليها بالنهار، دا لو فضل لحد لما يطلع النهار.

- يعني أيه؟!!

- يعني تدعي له يا شعيب، ادعي له ربنا يرحمه علشان القصة خلصت . خلصت خالص..

في ثنايا الخور ستجد كل الأشياء وعكسها وستقابل كل الأمور وأضدادها. في ثنايا الخور قد تجد آثار الموت وآثار الحياة وما بينهما، قد تجد الأشباح وقد تجد الملائكة، قد تجد الطيبين الخيرين فاقدين الأمل وقد تجد الأشرار العابثين المتسببين في فساد الرقعة التي تحملهم من

الأرض، قد تصادف الحيوانات الأليفة ترعى حشائش وأحراش الجبل وقد تقابل المفترسة منها والدامية تفترس الضعيفة الحالمة، قد ترى الطيور الجارحة في أعشاشها المضروبة في قلب الجبل وقد ترى الطيور الأليفة تملؤ بطونها بما تجود به الأرض، قد تخطو بقدمك على الرمال الناعمة وقد تشعر بصلابة الصخور القاسية من تحت قدميك، قد تضربك أشعة الشمس الحارقة وقد تشعر ببرودة قارسة لم تشعر بها من قبل، قد تجد المياه بكميات زائدة تتدافع بطريقة مخيفة وقد تجد الأرض جافة قاحلة لا تكاد تنبت نبتة واحدة.

في ثنايا الخور قد تصادف الذاهبين وقد تقابل في طريقك العائدين.

في ثنايا الخور قد تقتل أو تُقتل.

في ثنايا الخور قد تكتب لك النجاة من الموت وقد تموت فعليًّا ولن يتبقى منك سوى عظامك وستتكفل الأرض بإخفائها فتصبح نسيًا منسيًّا.

تحرك شعيب مرغومًا مع الجمع، يبكي وتخفي مياه الأمطار والظلام دموعه، تحرك مليئًا باليأس مفعمًا بالحزن والألم من قساوة المشهد وصعد يجرجر ساقيه بصعوبة وهو يشعر بثقلٍ غريبٍ على صدره جعله يحمل الكراهية والضغينة تجاه العالم أجمع.

واصل الجمع المسير في الظلام فتخطوا كتائب الجيش القائمة على الأرض الممهدة في أول انبساط للهضبة، كان المرور بجوار المعسكرات لا يخلو من خطورة ولكن جميع من بالداخل اتخذوا مكانًا آمنا يقيهم ويحصنهم من مياه الأمطار فلم ينتبهوا لما يحدث من حولهم فكان العبور بجوارهم سهلًا آمنا.

تحولت السيول إلى قطرات بسيطة من المياه إلى أن انقطعت نهائيًّا وخفت سرعة الرياح وبدت الأوضاع هادئة وارتحلت السحب عن السماء فظهرت صافية تحتلها النجوم في صورة بديعة وأرقام لا يقدر البشر على إحصائها.

استمر شعيب في المشي من وراء الجمع إلى أن اهتدوا إلى رقعة من الأرض بها أطلال مبانٍ قصيرة الارتفاع أنبأهم إسرافيل أنه لواء مهجور من ألوية الجيش قد عف عليه الزمن واستبدلوه بمكان آخر مروا بجواره اثناء رحلتهم، استمروا على هذا الحال من المشي بأقدام خائرة لا تقدر على استكمال الطريق حتى وصلوا لوادي عقرب وقطعوا طريقه إلى المنتصف حتى لاح لهم منفذ السلوم البري من جهة الشمال، ظل شعيب يلقي بناظريه من وقت لآخر على إسرافيل الذي يتقدمه في الطريق بكراهية وشعر نحوه بضغينة جعلته يتمنى قتله، وفي طريقه سمع أصوات حوافر فنظر تجاه الصوت فلم يرَ شيئًا في الظلام فدقق البصر فوجد عددًا كبيرًا من الأغنام متفرق الشمل يفترش رقعة كبيرة من الأرض في الظلام فلم يعِرهم أي انتباه رغم وقع الخوف في صدره من المفاجأة وأشار لإسرافيل ليُريه الجمع؛ فعرف إسرافيل أن أرزوقة أتم مهمته وترك قطيع الغنم منتشر في وادي عقرب ليضلل به قوات الحرس.

في البعيد وعلى مسمع من الجمع المرتحل صدحت أصوات طلقات نارية بأعداد كبيرة من حين لآخر وسمعوا من بعدها صوت سيارات تخترق عجلاتها أرض الصحراء وأخذ الصوت يقترب شيئًا فشيئًا إلى أن ظهرت بالقرب منهم عربة من عربات اللاند روفر تمشي بسرعة حتى تعسرت

بأجساد الغنم المنتشرة على الأرض فتعطلت عن الحركة تمامًا وكادت أن تنقلب فهرع إسرافيل نحو شعيب والجمع وأمرهم بالرقد على الأرض حتى لا ينكشف أمرهم أيا ما كان الحدث.

ظل إسرافيل وشعيب وبجانبهما المرتحلون الأفارقة ينظرون تجاه العربة المعطلة التي وقفت ساكنة دون حركة حتى تسلل منها نفران هرعا إلى صندوق السيارة وسحبا منها أشياء غير واضحة في الظلام وأخذا يظهران شيئًا فشيئًا على أضواء نور ساطع يقترب من العربة المعطلة.

فهم إسرافيل أن ما يحدث من أمامه ما هو إلا مطاردة من قوات الحرس وأن النور الساطع ما هو إلا كشافات الرؤية الليلية التابعة للحرس والتي ظهر على أضوائها النفران واضحينِ أمام إسرافيل فعرف أنهما العمدة طخارة وسلومة ولا شك في نفسه من ذلك فهرع إسرافيل نحوهما وفعل فعلتهما فسحب سلاحًا من الصندوق الخلفي من العربة ووقف إلى جوارهما ودارات المعركة بين قوات الحرس والفرقة المهربة الخارجة عن القانون.

تفرق جمع الأفارقة هاربين متشتتين في الصحراء الشاسعة وظل شعيب راقدًا يشاهد المعركة التي تطايرت فيها مقذوفات الرصاص من أمامه وهو مصدوم بهول المشهد الذي أنساه حياته وما فيها واشتدت المعركة حتى وصلت إلى أوجها فشهد شعيب مقتل سلومة وإصابة العمدة وإسرافيل إصابات بالغة جعلتهما غير قادرين على استكمال المعركة وقد ألقيا سلاحهما.

توقفت النيران عن الانبعاث من خزائن الأسلحة بعد أن فطن رجال حرس الحدود إلى أنهم قد تخلصوا نهائيًّا من المسلحين فترجلوا من عرباتهم

وأخذوا يمشطون المكان فحملت جماعة منهم جثة سلومة وقبضوا على إسرافيل والعمدة طخارة وساقوهما إلى العربات وهما يصرخان من شدة الألم.

تقدم أحد مقاتلي قوات الحرس في اتجاه النقطة التي يرقد فيها شعيب وظل يتقدم في سيره فبدأ الذعر يتسلل في نفس شعيب إلى أن وجد فوهة مصورة البندقية الآلية التي يحملها المقاتل أمام ناظريه، فتلاقت أعينهما فقرأ المقاتل في نظرات شعيب الذعر والخوف فسأله دون مقدمات:

- أنت بتعمل أيه هنا؟

ظل شعيب صامتًا إلى أن برقت عيناه بالدموع وأجاب في تلعثم:

-أنا، أنا كنت بحاول أهرب على ليبيا.

صمت المقاتل للحظات وشعر بحيرة غريبة جعلته يتحدث مع شعيب بنبرة صارمة مليئة بالحزم:

-أنا لو أخدتك معايا دلوقتي هتشيل ليلة مش ليلتك، أول لما أتحرك من هنا تروح تسلم نفسك لأي وحدة من اللي منورين هناك علشان أنت مش حمل اللي هيحصل لك لو دخلت مع المهربين دول.

نطق المقاتل بكلماته وهم بالرجوع إلى موقع عربة الحرس التي انشغل مقاتلوها بجمع السلاح الذي سقط من عربة سلومة والعمدة طخارة، تحرك المقاتل عائدًا فهمس شعيبٌ بصوتٍ خافتٍ قائلًا

- اسمك أيه؟

التفت المقاتل ونظر لشعيب نظرةً طويلةً استكشف من خلالها هيئته بالكامل ورد على سؤاله قائلًا:

-اسمي خالد، خالد ضرغام.

تحرك الرجال داخل العربات بعد أن أتموا مهمتهم بتجميع السلاح دون أن يشعرَ نفرٌ منهم بوجود شعيب رغم ما كتمه خالد ضرغام في نفسه، وظل شعيب على رقدته مشدوهًا مفجوعًا من هول المشهد حتى شعر ببرودة قارسة جعلت جسده يرتجف رجفاتٍ شديدةٍ فقاوم وهنه ووقف على قدميه بصعوبةٍ وضعفٍ شديدين وأخذ ينظر من حوله في الظلام فتذكر كل شيء من بداية رحلته البائسة إلى ما فعله معه خالد وظهرت المشاهد كاملة في مخيلته فشعر أنه وحيد في هذة البقعة من الأرض وأن العالم كله لا يدري عن حاله شيئًا وتحرك في اتجاه نور ساطع من إحدى وحدات الجيش المستقرة بعيدة عن مكانه عازمًا بداخله على تسليم نفسه للجيش مهما تبع ذلك من أحداث حتى لا يهلك في تيه الصحراء الغارقة في الظلام والوحشة.

تمت

#غرّد_للعالم
٧شارع محمد أبو العطا- محطة العريش- فيصل- الجيزة
هاتف: ٠١٠١٧٧٩٩٧٩٩ / ٠١٢٢٥٧٦٢٠٦٦
البريد الإلكتروني:tweetpublishing2017@gmail.com
الموقع الرسمي: www.facebook.com/Tweetforpublish